رواية

من وحي المعاناة

سعاد بن شطو

كتوباتي
kotobati

من وحي المعاناة

سعاد بن شطو

رواية

الكتاب: من وحي المعاناة

تأليف: سعاد بن شطو

تدقيق: سعاد بن شطو

النوعية: رواية

الإصدار: 2023

تصميم الغلاف والتنسيق: مكتبة كتوباتي

النشر الإلكتروني: مكتبة كتوباتي

www.kotobati.com

kotobati@gmail.com

كل الحقوق محفوظة لدى المؤلف.

المقدمة

هذه قصة لا بد لها أن تكون، لأنها رمزية ملامسة للو اقع الإجتماعي الذي تحياه شعوب العربية، و لو لم أن جائحه الكرونا رفعت الستار على هذا المسرح لكانت حاضرة بطريقة أو بأخرى، كما أنها قد تكون تربة صالحة لاستخدامها بشكل عميق في ترجمة القليل من هذه المأساة حروفا. ولعله من المفيد أن أشير إلى أنني لست أنا أول من سخر أناملة لوصف هذه الأحداث بشكل مبالغ فيه بل هناك من كانت له سبيل مختلف نحو سرد أحداث وتجارب من نوع آخر. أوجه جزيل الشكر لكل من

الأستاذ بوقرة العيد

السيد كمال بوربعة

السيد جمال عبدالناصر

السيد إيهاب شلا

الآنسة ريم نصر سعد

الآنسة إسماء آيت طالب

الآنسة نوررضا

****

أنا الآن أرى....

أرى و أعيش الظلام الحقيقي، الظلام الذي لم أعرفه منذ و أنا ..... إنّه يزداد، يزداد بلا شفقة، يزداد أكثر مما كان عليه، ذلك السواد الذي يأبى مفارقة عيناي لكنه ليس كالظلام الذي تعوّدت عليه طيلة تلك السنوات، ظلام من نوع آخر استولى علي وتشبث بجوارحي، أحيا معدومة مكتفية بنفسي فقط كما أرادت العزلة في حياتي أن أصبح ملحدة بالحزن. طالما كنت أتأمل و أبحر في أحلامي أن حياتي سوف تزهر بلون النور الذي تبصره عيناي يوما ما، لا أنكر أنّني يوما ما أردت الحياة التي أعيشها اليوم، لكنني مشتتة الأفكار، متناقضة الرغبات. حاولت كثيرا أن أتجاهل تلك الأحاسيس, لكن كيف؟ و أنا الآن مجرد بقايا من أجزائي المتساقطة حولي لما عشته طيلة تلك السنوا صدر أنا لا ؟ و أنه كان كل ما أملك، مازلت لا أدرك كيف أتعامل مع مخاوفي

ومع المشاعر التي تفترس قلبي بين الحين والآخر، أؤمن بأن الأضرار المتخلفة من الجروح لا بد لها أن تتعافى يوما، وأن القلب رغم نزيفه المتواصل من كدمات العمر سيتعافى يوما لكن العلامات التي توشم على ظهر اللا انمحاء تقبع في الذاكرة، ولا وجود لسبيل غير النسيان، فأنا أصبحت مجرد نسخة مطورة عن سابقتها، نظن أننا ننسى، لكننا فقط نراكم ذكريات الماضي على الحاضر، وأي وتر حساس يطرب على الجرح تعود الذكرى كما كانت في اللحظة نفسها التي عشناها. كان عليّ أن أتعلم كل شيء لكي أحافظ على سطوّتي وشجاعتي، كي لا أفقد نفسي في ماض مر عليه الكثير و أنا ما أزال أعيش فيه أوجاعي لأنّني طالما كنت أتصور أن هذه المأساة مرسومة لشخص له قدرة كافية على عبور محنها و تجاوز ألمها.

******

14 ماي 2021...

أشرقت شمس يوم جديد، إنّه يوم عيد ميلادي التاسع عشر, تمددت في فراشي ورحت أستعيد من ذكرياتي صورا من الحلم الجميل، الغارق في الألم المحاط بالأشباح التي طوقت مخيّلتي، و بدأت أفكر في قضيّتي الحياتيّة التي لا تعرف أين تمضي، أجد نفسي كعالم مبني و موجه للعدم، لا اتجاه أصبو إليه، ولا هدف أحاول أن أبلغه، تائهة فقط، ولا أملك ما أعالج به ما يجب أن يرمم داخلي فكلي فراغ محض، وكأن وجودي على هذه الأرض خطيئة ما، أو عبء.. كلما رنوّت إلى خرابي الجميل ودماري النفسي والجسدي، أجد نفسي أحاول التجرد من الألم بالألم، وأني أحاول أن أملأ نفسي فراغا لعل فراغي يبتلع مآسيّ، ويذيب الكرب الذي لا ينتهي. كنت أنا وحدي المتضرر الأكبر والباكي الأكبر والحزين الأكثر في هذا الكون، لا أحد يعلم أن

اعتيادي على هذا الجمود ما هو إلاّ نتيجة لتراكم كتلات هائلة من الفراغ الداخلي، فلم تعد عيني تلفظ دمعا يرى، انتقلت إلى مرحلة البكاء داخلا دون البيان، فهكذا صنعت، باردة كقمة جبل، مجبولة على إعادة زر الصبر. حاولت النهوض من فراشي متوّجهة إلى شرفتي حيث أعتكف على وحدتي، و أرتاح من الإنصات للحديث الذي يدور بين عقلي وفؤادي، أبحث عن مكان ملائم للجلوس لتصفيّة الذهن، والحق أن كل ركن في محيطي يصلح لفرز نفسي عن نفسي، لن أقول أن الوحدة موجودة في كل شيئ يحيط بي، بل أكثر من ذلك، في الحقيقة لست وحيدة أيضا، الوحدة أرقى من أن تنسب إليّ، أنا فقط شيئ انبعث من رماد الوحدة، إنسان خيّم داخله صمت طويل، محيطي مرتب بعناية وشبح الوحدة يجول في كل بقعة من غرفتي بكل ترتيب وحصانة من أي إهمال، فعندما يعيش المرء وحده، يكون نظيفا ومرتبا في كل شيئ حتى في حزنه، فيجب على الحزن أن يكون مثاليا هو الآخر. جلست والحزن يفترس قلبي،جاز لي البوح هاهنا، ولا شيئ يدفعني سوى

خواطري التي تتجدد في كل لحظة فلا توّلد سوى وجع وراءه وجع، طمعا أن يخفف من حدة البركان الذي يتأجج داخل صدره. تأملت مليا... إنّه الظلام الذي يسكن عيناي، أنا الذي عدّلت عجينته كي يعيش على هذا البؤس، وليس هذا شاذا أيضا، فكلماتي مثلي حزينة وهاربة تبحث عن ملجأ لتتدثر، فلا تجد سبيلا غير دواخلها كما ألجأ أنا إلى دواخلي أبكي بحرقة، أيمكن لفتاة مثلي تلقب بالحسناء أن تحظى بحياة كهذه؟ أنا التي تعوّدت على الظلام وتعوّدت على شم كل شيئ، كنت جميلة ووجهي الفتي مملوء بالنعومة، كنت أخاف أن تتلاشى أحلامي وتذهب بلا عودة، وتفلت مني هذه الأيام دون أن أرى الحياة خارج أسوار هذا البيت الهش، لأول مرة ومنذ زمن بعيد، بدأت أفتش بين دموعي عن جواب، كانت دموعي حارقة كعادتها لكن بشرتي اليوم انكوّت بها أكثر وتدفأت بها من غشاء البرد الذي يكتسيها، أتطلع بحيرة إلى الظلام الذي يلفني، أجابني الصمت والسكون، لا أحد يسمع صوت أحزاني وآلامي لقد متُ و أنا على قيد الحياة سأهلك ولا أحد يتمكن من انقاذي

من هذا الموت البطيء، كبئر جف فيه الماء و قاحلا ، وددت الصراخ لكنني خفت على أمي، في كل مرة أكاد فيها أن أخرج عن جادتي وأطلق لثائرتي العنان، كم كان صعبا أن أبكي وأحرص على أن لا يصدر مني ذلك الأنين الخفي كي لا تسمعه أمي، كانت كل أيامي تتشابه بلون واحد هو لون السواد، لا ضياء فيها ولا نور كما يبصر أي كائن غيري، تململت في مكاني وغصت في لجة تفكيري، كيف ستكون حياتي و أنا محرومة من فعل أي شيئ أرغب بفعله. بينما أنا أتجول بين اللجج المتلاطمة ساعات منهكات طرق مسامعي صوت أمي، كأنها تكلم أحدهم؟، تناولت عصاي وحملت نفسي إلى هناك بخطوات صغيرة ومترددة، وقفت عند حافة الباب، لا أريد أن ترى فضولي الكبير لسماع أي شيئ بخصوص أملي بالشفاء، ذكرت بصوت خفي بإسم دكتور "عادل"، انتفضت ببسرعه و قلت في نفسي مر الكثير من الوقت ولم يتصل، سررت كثيرا لذلك إتصال بغض نظر ماذا سيقول. عادل هو الدكتور معروف بالمنطقة له فضل كبير علينا، كان عنوان للخير والحب والإنسانية.

بعد حوارا طويلا عم الصمت في تلك الغرفة لبرهة ثم أردفت قائلة من أين لنا بهذا المبلغ ونحن لا نملك قوت يومنا من الطعا....م. انهت الحديث بسرعة و اغلقت الخط، أظن أنها أحست بأنني أقف هناك، انصرفت بعدها إلى زاوية من الغرفة وجلست فيها. أما أنا عدت بنفس الخطوات إلى شرفتي حيث اعتكف وحدتي وبقيت هناك. لا جدوى من التظاهر بالتغافل واللامبالاة أعلم أنها حزينة من أجلي، دائما في تبكي في سرها لأنّني لم أحظ بالرؤيّة ولأنّني فقدت جزءا من شخصيّتي! كانت أمي طوال الوقت صامتة، قليلة الكلام، كثيرا ما كنت أقف عند باب الغرفة أسمع تنهيداتها العميقة المملوءة بالأسى، كانت تخفي عني حزنها و ألمسه في عيناها المتورمتين من البكاء في كل صباح، لكن قناعتها دائماً راسخة لم تتزعزع، وتفعل كل ما بوسعها لكي تأخذني إلى أفضل المستشفيات وتستشير أهم الأطباء، لم يكن التشابه في الشكل هو ما يجمعني بأمي فقط حتى في القدروالمصيرفحتى هي فقدت نورسعادتها بفقدان أبي، طالما كنت أقف عند باب المطبخ أسمعها وهي تنشد

أشعارا ثم تتوقف لتتنهد ثم تعاود الغناء بصوت رخيم متقطع، أدركت حينها أنها كانت تحبه لحد الجنون وتفتقده جدا، أما أنا لم أحظى برؤية والدي ذلك النور الذي انطفأ مرتان مرة لأني فقدته ومرة لأني عمياء.

قبل شهر.....

كنا ننتظر انتهاء ذلك الحجر دون أن نتأمل أو نتعلق بأوهام كثيرة، الوضع لا يطمئن داخل وخارج الوطن، كل شخص وجب عليه الالتزام بالتعليمات المفروضة، تم غلق كل شيء، لقد تأثرت كثيرا، خاصة أنّنا كنا نأجل موعد العلاج في كل مرة، بسبب ارتفاع عدد الإصابات وفرض الحجر المنزلي في كافة أنحاء الوطن لحين تحسن الوضع الصحي في البلاد، أصبحنا مسجونين وهذا ما زاد من يأسي مثل السجينة تماما، وهكذا لم أجد أي مفر من الأفكار التى تراودني، كنت محتاجة لشخص ما يقول لي أنّني في حلم و أنّني سوف أستيقظ منه لأنه كان سببا في كل أوجاعي.

****

استيقظت مبكرا، قررت أن أمضي اليوم بأكمله في البيت بانتظار رجوع أمي بتلهف، جالسة لوحدي في البهو، كان القلق يتملكني بعد أن قضيّت ساعات طويلة بعدم التفكير في هذه اللحظة، كنت أحاول افراغ رأسي من كل شيء كمن يفرغ قبوا من محتوياته وذلك لأكون مهيّئة للقرار النهائي الذي أنتظره منذ وقت طويل، كم مر من الوقت يا ترى؟، هذه آخر مرة أو افق أن أبقى لوحدي في البيت، لماذا تأخرت؟، لقد حل المساء و أتعبني هذا الانتظار، أشعر أن الوقت يمر ببطء شديد، كأنني في حقل ساعات مكسورة العقارب، بقيت على تلك الحال حتى غرقت في نوم عميق، و عندما استيقظت استغربت من أن أمي لم تعد بعد !. تراودني فكرة واحدة الآن وهي أن الخبر الذي تحمله أمي يملك البشرى الشافية لكل أحزاني، أمشى نحو التلفاز بحذر كبير، عيناي للأعلى أرجو أن لا أصطدم بشيئ، أتحسس

زر التلفاز بأناملي أين جهاز التحكم ؟ هاه صوت الباب يفتح ...

_أمي أين أنت؟ لقد تأخرتي، ماذا قال لك الطبيب ؟ هيا أخبريني بسرعة

تمشي نحوي وبصوت منهك من التعب

_تفضلي حبيبتي (الريموت) كم أنا مرهقة اليوم لقد مشيت كثيرا في أروقة ذلك المشفى

عاودت السؤال مرة أخرى لماذا تأخرت؟،

_لم يخبرني بشيء بعد، لكنني أنتظر اتصالا من الممرضة لكي تخبرني بجواب منه، لم أستطع الانتظار أكثر هناك.

بقيت جالسة بحضنها وهي تنشد لي الأغنية التي لا أمل من سماعها أبدا "قمرة قمرة بالقرآن منورة قمرة قمرة.." سألتها مرة أخرى بتذمر

هل هناك أمل عما سيقوله الطبيب؟.

سكتت لبرهة قليلة ثم ضحكت وقالت لي:

_نعم، كل ما أعرفه أن الله لن يخيّب دعواتي.

ابتسمت ابتسامة فاترة وودت الانسحاب من حضنها، كما أن ذلك الإحساس الذي يراودني منذ صغري بدأ

يتضخم في قرارتي، و يسيّطر على عقلي، مثلوو اقعا أعيشه كلما خلوت بنفسي. قد أصبر على ضيق أو على فقر أو يتم، لكن هذا العذاب الذي أعيشه شيء يربكني، ولست من الذين إذا تعب قلبهم خرّت جميع الأعضاء مثله تواسيه، أؤمن بقوة العقل أكثر من قوّة القلب، وقدر المستطاع أحاول ألّا أترك الإحساس لحواسي ولقلبي، عوضا أحاول ما أمكن أن أجعل تذوّق ما يحدث بملكة عقلي فقط، وأدري أنّ كلّ أحاسيسي مُرّة، لذا فأنا أحلّيها بأفكار و أراكم فوقها اعتقادات، أو أنفثها دموع، شعرت أمي بضيق خاطري، وفهمت أنّني أحسست شيئا، لكنها منعتني من الذهاب إلى غرفتي وراحت تلفني بكلامها الحنون تماما مثل بلسم تضعه على جرح مؤلم.

مكالمة تلفونية، يا أمي

_ إنه الدكتور عادل

اعتدلت في جلستها وهي تتمتم

_ أرجوا أن تكون المكالمة المحملة بالبشرى المنتظرة

ردت عليه وبعد تحية ومقدمة طويلة قال لها خبر جعل من كل جسمها يهتز لتلك الشهقات المثيرة للانتباه .

_ نعم نعم أنا لقد جئت المرة السابقة من أجل التحاليل.

سكتت لبرهة من الزمن بصوت متأثر.

_إذن يمكنها العلاج في الوطن لديها أمل بالرؤية؟!

فتحت عيناي بذهول ثم انتفظت و أنا في ترقب مفعم بسعادة كبيرة تنهدت و أنا أحاول أن أسيطر على نفسي، وأخيرا سوف تغمرني الفرحة التي أحلم بها، تحسست بخفة وراءها وعانقتها وطبعت قبلة على خدها، أعصابي كانت مشدودة بالكامل، أنتظرها بفارغ الصبر أن تغلق الخط لأتأكد من صحة الخبر، بصري، حياتي، أحلامي، أمالي...

أغلقت الخط وهي تدعو بعمق بأن يحفظني ويسهل كل أموري لقد ظلت سنة كاملة تقوم باستشارة الأطباء ذهابا و إيابا ولكن لم نستسلم يوما لليأس، قاطعتها بطريقة سريعة ومفعمة بالفضول

_ ماذا قال لك الطبيب ؟

أمسكت بيداي الصغيرتين شعرت بالدفء الذي يغمر انفاسها، ثم انخرطت في البكاء الذي كتمته عني منذ سنين، لقد شعرت بدموعها وهي تنهمر فوق يداي، وتختنق لا تستطيع الكلام، إنّها محظوظة ببلوغها هذا القدر من السعادة، كانت دموع الفرح، دموع القهر، ودموع الشجن، كانت فرحتها مبتورة من كل ناحية، الحمد لله لقد استجاب الله لدعو اتي.

_ الحمد لله، شاء الله أن يذيقك طعم الفرح بعد انتظار طويل، هذا اختبار من عند الله، وليس عيب بأن يكون الإنسان لديه معضلة بحياته، ليس هناك من هو خال من العيوب كل منا لديه شيء يعكر حياته، أعلم أن هذه الحالة أنهكتك كثيرا، لكن أنا على يقين أنكِ عندما تريّن ماذا خبأ الله لكِ من سعادة ونجاحات وتريّن الجمال الذي وهبكِ إياه، سوف تنسين كل أحز انك (....)

في تلك اللحظة لم ينتابني إحساس تجاه أمي أصدق من الدموع والبكاء في أحضانها وكانت أجمل أيام عمري كنت مبتهجة ومغتبطة، لأول مرة ومنذ زمن بعيد أحسست بشعور لم أستطع أن أميز نوعه، لكن كل ما

أتذكره أنّني لم أنم ليالي كثيرة و أنا أتصور تلك الضحكات التي ترتسم على وجهي عندما أبصر نور الحياة، أصبت بالأرق بعد سماع الخبر خشيّة أنّني لن أستيقظ على تحقيق هذا الحلم الذي بات في و اقعي، في حلمي، وفي تفكيري المملوء بتلك الأحاسيس الممزوجة بين رغبة قوية بالبكاء و الصراخ بأعلى صوتي لطرح كل تلك الأحزان، لأنني وببساطة كل الذي عشته في تلك اللحظات لم يعشه مبصر سنوات، ضمتني بحرقة الفرح ثم قلت لها بحماس

_إذن سوف أذهب لتجهيز كل ما يلزمني

ضحكت أمي

_لكن بعد اصطحابك إلى غرفتك، قليل من الوقت وسوف تفعلين كل شيئ بمفردك.

قاطعتها

_مثل باقي الناس و سوف أكون حرة وأمشي لوحدي دون خوفي من السقوط ...

صمتت ثم طلبت مني أن أبقى في سريري، و أنّها سوف تعود بعد أن تكمل صلاتها، خطت خطوتين ثم ناديتها

_أمي

_ نعم حبيبتي

_أحبك كثيرا عديني أنك أنت أول من سأراه عندما أفتح عيناي.

_ومن سينجح بسلب هذا الحلم مني.

عشت سعادة متزايدة لذلك الخبر، كنت أكثر المخلوقات سعادة فأنا في كل لحظة في حياتي أدعو الله أن لا يحرمني من هذه النعمة، لن أكون محملة بالضعف بعد اليوم لن أحس بذلك النقص العميق في قرارة نفسي بعد اليوم، لن أكون مجرد دميّة متلفة في قالب فتاة، اليوم أنا سعيدة سعيدة جدا، أنا أعيش سعادة عميقة أستحقها بعد سنوات من العناء هذه اللحظة المنتظرة التي ساعدتني على الصمود والبقاء أقوى بقدر ما استطعت، كانت كراهية الحياة تملأ قلبي لكن ما إن سمعت ذلك الخبر حتى انطفأت تلك النيران

وخمدت، سوف أعيدها بكل جوارحي للقعر لا أريدها أن تنغص بداية عمري الجديد، لأن الحرمان ينهش الروح ويضعف الجسد، لقد أنقذني ذلك الخبر من التهلكة من التلاشي والضياع، وجدت فيه سعادتي وطمأنينتي وأخيرا شعرت أنّني أنتمي إلى هذه الحياة روحا وجسدا، سوف أكون أنا فقط، هذا الأرق الذي يصيبني سينتهي، و ها قد جاءت اللحظة التي ستغمر قلبي سعادة، إنّني متلهفة لبلوغ حلمي الكبير، ذلك الأرق الحزين الذي كان يطرق قلبي في كل ليلة سيذهب إلى غير رجعة، أنا على استعداد لأرتوي من كل شيئ حرمت منه بعد أن جف نهري و أفرح بالقدر الذي رسم من أجلي و أنّني سأعيد تشكيل الهرم الذي هدم بظلمات سنين طويلة، و أنني سأجد كنزي الذي ضاع في الأعماق إثر عاصفة أفقدتني وعيي و أنني سأرقى فوق ضعفي بقوة الحرف الذي يجعلني ملكة، لكن...

******

الأسبوع الأول

يوم 14 جويلية 2021 الأسبوع الأول ...

صيف هذه السنة لم يأتي بشيء غير مألوف على غير العادة، لم يكن هناك أي مفر من سماع تلك الأخبار المحملة بالأسى والعذاب، خاصة حينما أعلنوا الحقيقة الصارخة في وجوهنا برفض كل المرضى بالمستشفيات العامة، لعدم توفر أماكن من هول إصابات الجائحة التي اجتاحت العالم، ووصلت إلينا، وأن كل مستشفيات الولاية ذاقت ذرعا من الهلع، مما جعل كل المسؤولين يعلنوا حالة الطوارئ و الاستغاثة _يجب أن نتضامن جميعنا ونتكاثف_ بات نقص الأكسجين شغلنا الشاغل وهمنا الفظيع، فشل كل ما بيدهم وفعلوا كل ما بوسعهم ونفدت كل أساليبهم فقد جرى ما لم يكن في الحسبان، أصبح حال البلد في خطر!، فبعد تلك الفترة العصيبة من السجن لم أكن

أتوقع أن ما هو آت سيكون صعبا وقاسيا، إحساس فظيع بالوحدة والضياع، ضغط شديد كل يوم، أعصابي لم تعد تتحمل، صرت ألزم غرفتي لا أخرج إلّا للضرورة، من يتوقع أن تكون الحياة آنذاك بتلك الحدة، فكل ما أتذكره أنّني كنت أكذب كثيرا أكذب بالطريقة التي تجعلني أشاركهم حياتهم و لا أجد من يشاركني خوفي و ضعفي وقلة حيلتي، فقد أحطت نفسي بهالة من الخوف والهلع، رافضة لكل ما يحدث من حولي، الزقاق هو الشاهد الوحيد الذي شهد تلك المآسي، وفوضى الحركة في قلب المدينة، كلما أفتح التلفاز على كل محطاته لم أسمع شيء يشفي غليلي، كانت السيارات تخترق الشوارع بضجيجها، والأصوات تزداد حدّة، الناس مثل النمل يتجهون في كل الأمكنة، لقد جفت شفاههم وهم يطلبون الهدوء والمساعدة، ثم سمعت في التلفاز نداءات الاستغاثة لتجنيد كل الأطباء والمختصين والممرضين للالتحاق بالمستشفيات القريبة منهم، فبالرغم من خطورة الوضع إلّا أن أمي لم تستسلم حياتها الخاصة حافلة بالتوتر والعمل

اللامتناهي لو اقع الفقر من جهة وعيناي التي لا تبصر النور من جهة أخرى، كانا يشغلانها طوال الوقت، لكن منذ أن سمعت أمي أنّني سوف أبصر أصبح ليلها نهارا ونهارها ليلا، لأنّنا كنا فقراء جدا، ونحصل على المال من الاشتغال في شتى أنواع الأعمال الصغيرة، وهي تبذل ما بوسعها لترى ابنتها الوحيدة تحظى بنصيبها من السعادة، ومثل جميع الأمهات لا تنام الليل حتى تطمئن على ابنتها وتتأكد أنّني بخير، تستيقظ أمي باكرا وتذهب للعمل بعد أن تتركني عند السيدة سعاد صاحبة محل لبيع الحلويات تسكن بجوارنا، هناك أحاول أن أعمل أي شيء تلتقطه يدي لأملأ فراغي لأنّني لا أحظى بفعل أي شيء في البيت لأنّ والدتي لا تسمح لي بمساعدتها، تعود في المساء وإذا اضطرت تزيد ساعات العمل فتتأخر حتى الليل، أصوات الاستغاثة التي أطلقت عنانها في كل الاتجاهات وفاة في كل يوم وجثث تعم أرجاء الأزقة و نداءات ترتفع من كل حدب وصوب، يا ترى من يسمع آلامهم ويقدر أحاسيسهم، إنّها أصوات الفقر، تبحث عن المساعدات التي توفر الأكسجين فكانت هذه

التبرعات الملجأ الوحيد لكل الفقراء ومن ليس بيده حيلة أو بالأحرى لمن ليس بيده دينار.

صوت أمي، الباب يفتح كأنّها تتكلم مع أحدهم، مرحبا كيف حالك؟، إنّها تعانقه وتسأله عن حاله بعتاب، لماذا تتأخر في قدومك إلينا هذه المرة طال غيابك إنّنا نشتاق لك كثيرا، أمي وخالي كانا على وفاق دائم ويحبان مشاكسة بعضهما البعض والمزاح والضحك، ذهبت إلى هناك أتحسس جدران الرواق ووقفت عند الباب، سمعته يقول أتيت إليكم لأطمئن على أحوالكم، تشكره أمي ونجلس سويا ثم تستطرد والدتي قائلة:

-الوضع معقد يا أخي وهذه الجائحة سهلة العدوى، إنّها تفتك بالذين يعانون من ضيق في التنفس.

يجيبها خالي: يجب أن تعتني بنفسك يا أختي أنت لا تتوقفين عن العمل، لماذا تلقين بنفسك إلى التهلكة؟،

قلت في نفسي :

_أمي لم تخبرني يوما أنّها تعاني من أي مرض!،

كان يتكلم بحذر لكي لا أستطيع الاستفسار عما تعانيه، تظاهرت بجهلي للموضوع، وأكملت التحدث إليه، عانقني بكل حب وسألني هل أنا بخير؟ أجبته بكل عفوية

- بخير، أريد أن أذهب للطبيب في أسرع وقت ممكن، و أتمكن من الرؤيّة و أقول لك أنني أحبك أنت وأمي كثيرا.

سكت خالي لبرهة، لا أعرف ما الذي خطر بباله، لكنه كان يود أن يبدأ بمقدمة لن تعجبني و أنّني لن أستطيع الذهاب من أجل العلاج هذه المرة أيضا، لسبب لا أعرف ما هو، عانقني وقال لي:

سوف أفعل ما بوسعي لإسعادك يا أميرتي

صحيح أنه كان صارما، لكنه في الوقت نفسه متفهما، كان صديقنا ومخبأ أسرارنا، كنت أحبه و له مكانة تشعرني بالرضا والسكون دائما، استطاع إبان كل هذه السنوات أن يوطد مركزه في قلوب الجميع لأنّه صاحب مو اقف حميدة، كان السند الذي لا نستغني عنه أبدا، يحبنا ويفعل ما بوسعه لإسعادنا.

قاطعتنا أمي قائلة:

_سوف تتناول معنا الغداء، لا مفر لك اليوم.

اجتمعنا حول طاولة الطعام وشرعنا في تناول الأكل و اشتركنا في الحديث، كان كل حديث خالي عن تلك المعضلة التي بتنا نعاني منها، حيث أنّه كان يخبر أمي بسوء الموقف إن واجهنا نفس المصير الذي واجهه أثناء فرض الحجر الكلي فالتوقف عن العمل كان يعني لنا النهاية، ضحكت أمي وردت عليه ساخرة قائلة نفس العبارة التي تواسي بها نفسها:

_ الأقسى من هذا هو أنّنا نعيش كل مراحل الموت لكننا ننجو في الأخير، وهذا ما يزيد من حدتها، ليتنا نموت حقا. فعيش تلك المآسي يجعلك تتعجب كيف أن الإنسان كلما تعامل مع شيء أكثر كلما زادت ألفته له، في كل مرة نواجه مأساة نشعر كأنه أوّل موقف مر بنا، لقد تعوّدنا على المعاناة وتعوّدت علينا، لم نستطع أن ننهيها من حياتنا، المؤكد أنّها ستترك في أيامنا ندوبا و أحزانا لا تندمل، لا حيلة للفقراء أمثالنا إنّه مؤلم أن نقول أنّنا سنظل مجبورين على تقبل كل هذا.

و أردفت أمي تخاطب خالي بهذه الصلابة و العنفوان:
سأصارع الصعوبات حتى آخر رمق لحين أرى أميرتي ترى النور وهي سعيدة، لم أتقبل أي كلمة كانت تتفوه بها، شعرت بعجزها رغم أنها كانت دائما تظهر لي العكس، ظللت في صمتي دون الإجابة وعندما خرجت ألقيت برأسي على الوسادة، أحاول وقف ضجيج الأسئلة التي تعصر زيت قلقي في رحاها، لم أفهم ما الذي كان يريدا قوله جيدا ولكني أدركت أنّني كنتُ في حالة لا ترضي، سمعت خطوات أقدام قادمة نحوي ثم قمت وتحججت لأسير إلاّ أنّني تعثرت وكدت أسقط حيث أن خالي قام بإمساكي قبل وقوعي وأخذني وتوجه معي حيث كنت أجلس شعرت بخجل لما وجدني عليه فكنت برغم من كل تلك الآلام لم أتفوه بما يدور في خلجتي لأحد مهما كان، ظل طوال الوقت يمسك بيداي ولم يتفوه بأي كلمة قاطعت ذلك الصمت بتردد:
خالي هل أنت ذاهب ؟ عانقني بكل ود وقال:
_اعتني بنفسك جيدا يا أميرتي،

رجوته كثيرا للبقاء معنا هذه الليلة لكنه رفض بسبب ضغوطات عمله الشاق وأجرته القليلة، فهوا أيضا لا يحب المبيت في بيتنا إنه يلقبه بالعلبة لمساحته الضيقة، كنت طوال الوقت أفكر فيما قاله خالي لأمي، لم أشعر يوما بذلك الخوف الذي شعرت به آنذاك من طريقة كلامه، فقد اعتمل فيا خوفا وخيبة أمل، ما الذي سيحل بي، وهل لدي مزيد من القدرة على الانتظار أو تحمل كل تلك النكسات المتوالية؟، بل بالعكس، منذ أن بدأت أفكر بالعلاج أصبحت لا أطيق أي عذر آخر أين ألتجئ و أين أحتمي من علقة التجاهل فلا أستطيع أن أبقى طول حياتي جريحة خائرة ومكبلة بالعجز بين أربع جدران محاولة إضافة ألو انا لم أحضى برؤيتها حتى إلى آمالي. أنا أحيا فقط بقلب معطوب، وعندما تعيش وحيدا كثيرا تتألم كثيرا.. لم أعد أقبل العيش بنفس المشاعر الرثة والأفكار المحايدة، كبلدة فصولها خريف وشتاء، هذا الإحساس الموجع الذي جعلني أحس أنّني مسجونة ومكبلة من كل أطراف جسدي، يا إلهي يسر كل أموري ووفقني لأعيش كل لحظة رسمتها وتمنيّتها لكي

أعوض كل شيء حرمت منه منذ طفولتي، لا أنكر أنني كنت يائسة من تلك العملية، لكن ليس بتلك الدرجة بعد أن فتح لي بصيص أمل، بكيت كثيرا في ظلمتي، شوقا لتلك اللحظة التي تمنيت أن أحظى بها وينتهي ذلك العذاب الذي بات يتعبني ويرهق روحي البريئة، أريد أن أمشي بمفردي دون أن أصطدم بأي شيء، أريد أن أعرف الأشياء التي تحيط بي دون أن أضطر إلى شمها أو لمسها، أريد أن أعيش حياتي بكل تفاصيلها، لكن الآن أظن أنني صرت مطاردة من كل الجهات لما يحدث، بدأ التشاؤم يتضخم في نفسي ويتز ايد مخافة أن يحول بيني و بين مبتغاي في إجراء العملية بسرعة، استغرقت في تفاصيل تلك الأحداث ورحت أسمع إلى صرخات الأمهات اللامتناهية، ما هذا؟. في كل صرخة أضع يداي في أذناي وأمشي بخطوات متعثرة لا أعرف إلى أين لقد أصابتني نوبة من التوتر وبت خاضعة لكل ما يدور في رأسي من أفكار مريعة، وفي كل مرة ينتابني شعور عنيف ينعكس في قلقي من كل شيء، انفعال يطاردني تباعا من غرفة إلى أخرى كلما سمعت صراخا هرولت أتلصص

على النو افذ، لقد بات نقص الأكسجين والحصول على القليل منه لإنقاض الناس عملة نادرة وكارثة القرن، لم يكن من المتوقع أن تصل البلد إلى هذه الحال، كنت أتقطع وأنا أتابع تلك الآهات، هذا لا يصدق، مادة الأكسجين أصبحت هي شغلنا الشاغل وهدف حياتنا الوحيد، لقد كان الكابوس الذي يطارد تلك الطبقه الهشة التي لا قيمة لوجودها في هذا المجتمع.

في كل أمسية أجد نفسي أغرق في التفكير العميق أنقب عن دليل يختصر الأحداث المفاجئة والجو الذي لم آلفه، كيف أضع حدا لهذه الأحداث، كأن العالم يموت!، مازالت الأصوات تتعالى في الخارج وتتلاحق ويخيّل لي أن الجدران ترد صدى أصواتهم، ما هذا العدد الهائل من الأبرياء الذي يموت فقط لأنهم لم يستعدوا ليوم مثل هذا، شعرت بألم حين سمعت أنهم لم يحصلوا على قليل من التنفس، كثير من الأبرياء ليسوا مؤهلين أن يروا أهاليهم في تلك الحالة، ترى ما الذي يشعرون به حين يحدقون بأعينهم وهم يبحثون عن القليل من الهواء، ما ذنب هؤلاء الأبرياء؟، أذنبهم أنهم

فقراء؟، نزلت من سريري وجلست في الأرض مستندة على الحائط أسبح في ظلام دامس، ورحت أسقط في بئر مظلم لا آخر له تتخبطني المشاعر بين الحزن والريبة والتوتر والخوف ممزوجة بالهلع، ثارت مشاعري في تلك اللحظة، كم ضاعت مني ليالي طويلة و أنا شاردة في مصيري ومصير أولئك المساكين، الذي أرجعني إلى مرحلة الصفر والفتور و أنا أكره هذه البدايات، فالبداية أشد أنواع الغصص التي ما إن وجدت قهرت نسياني و تذكري، ترى أين ستأخذنا الأقدار؟،
استيقظت في منتصف الليل أشعر بالعطش تحسست مكان أمي -أمي..أمي..

لم تكن هناك، هاهي دخلت، سألتها ما الخطب؟ أخبرتني أنها تناولت دواء كانت محمومة و مرهقة قليلا، ترى هل هذا بسبب عملها المتراكم؟، ربما لأنها لم تحظى بشيء من الراحة منذ أشهر لكثرة طلبات العمل، ناولتني قليلا من الماء وعدت للنوم، استيقظت في الصباح الباكر كمعزول محكوم عليه بالموت تائهة الخطى أمشي دون وجهة، توقفت لبرهة كأنّني لوحدي في البيت ؟!

_أمي.. أمي!.

توجهت إلى غرفتها أتحسس الجدار بسرعة ظننت أنها مازالت نائمة، سوف أتحسس سريرها، فزعت لمجرد أنّني لم أجدها هناك لم أجد لها أثر، أين هي يا ترى؟، ترى هل ذهبت للمعمل بدوني، قبل أن أذهب إلى السيدة سعاد، عدت بخطوات حذرة إلى غرفتي ثم جلست بجانب النافذة أنتظر رجوعها مستغربة من موقفها، لم أتقبل أنها تركتني لوحدي بالبيت ولم تخبرني بذلك، أحسست بشيئ غريب يحدث، فجأة سمعت صوت الباب يفتح إنه خالي.

- مرام ...!

سلمت عليه دون أن أتفوه بأي كلمة تساءلت في نفسي ليس من عادته أن يأتي في الأيام العادية فهو متعود على زيارتنا في نهاية الأسبوع فقط، أظن أن أمي من اتصل به وطلبت منه أن يأتي إلى هنا، سألته مالذي حدث وهل له علم بسبب خروج أمي دون علمي، تظاهر أنه جاء صدفةً ثم قطع كلامه وجلس إيزائي واستغرق في التفكير ثم

تململ في مقعده وقال بصوت هادئ رصين هل نذهب إلى مكان تحبينه كثيرا يا مرام؟، كان خالي كلما يقول لي هذه العبارة يخطر ببالي مباشرة الميناء حيث يمكث، لكنني أجبته بصوت متردد لا!، لا أريد الذهاب إلى أي مكان دون أمي، واستحال وجهي في مثل لمح البصر من نظرة وادعة إلى اختناق وتوتر، حتى أن خالي بهت مما رأى ونفر قلبه قليلا وسارع وهو يهدأ من روعي:

-إنّها حمى قليلة و ارتفع ضغطها، لا تخافي عليها وإن لم تعد الليلة سوف نذهب إليها في الغد لا تخافي.

فخفق قلبي وأخلدت إلى الصمت مفكرة إزاء الحالة المزرية واستمر خالي يهدئ من روعي ويقول لي أنه شيء عادي لا أريدك أن تتوتري، بلعت ثلاث ملاعق آليا ثم تمددت في سريري لكنني لم أستطع الامتناع عن التفكير بأمي، استأذنت من خالي للذهاب إلى غرفتي، لبثت جامدة مضطجعة على بطني دافنة وجهي في الوسادة، وبدأت تغزو خيالي بعض الأحلام، كانت جميع أحاسيسي غريبة في ذلك اليوم بالذات غمرني إحساس لم يبلغ ذلك المبلغ من الهول والغرابة، والأمر الذي كان

يؤلمني أكثر هو أن ما شعرت به كان إحساسا ولم يكن فكرة، نعم كان إحساسا مباشرا، وأشد تأثيرا من جميع الأحاسيس التي راودتني طيلة حياتي، كان الخوف يطوّق نفسي كدرع من حديد، ضعفت و لم أشعر قط بأنّني أريد أن أبقى لوحدي، بدى الأمر وكأن جزءا مني يسعى الآن ضد الجزء الذي شاع فيّ واحتلني كل هذه الفترة، هذه القوى و مشاعر الريبة تثور الآن وتجتاح قدما القرى الجنوبية الصغيرة لشخصيّتي بسرعة محيّرة و خفة نشطة، لم أستطع أن أخبئ علامات التوتر من نبرة صوتي لقد احترقت خوفا من الحالة التى وصل إليها عديد من الناس و أين انتهى بهم المطاف.

****

جاء هذا الصباح الصباح الذي لا ينتظره أحد، كنت أنتظر طلوع الصباح على أحر من الجمر، كنت منهكة متعبة ومشتتة نتيجة كثرة الهواجس التي افترست تفكيري الليل بأكمله، تململت مليا في فراشي وبقيت على ذلك الحال ثم وقفت وتقدمت بقلب متردد وتفكير مشتت والغصة في حلقي بالكاد تقتلني للحظة أنّني تذكرت أني سوف أذهب مع خالي إلى أمي في المشفى، دعوت الله من أعماق قلبي أن يحدث مكروه لي، ليمنع وصولي إلى هناك، لأن حدسي في تلك اللحظة كان أقوى من أي مرة أخرى، توجهت أمشي بخطوات مسرعة و أنا أجاهد للوصول إلى غرفة خالي، وأخذت أمشي بحذر وأضع يدي على الحائط لكي أتفادى أي اصطدام، لم أنتبه أن الباب كان متلف والمسامير ماتزال عالقة به فأصبت يدي بجروح لأنّني كنت مسرعة، هناك تجاهلت الأمر و اتجهت مسرعة لغرفة خالي، ثم جاء وناولني منديل، جلب إليّ العصى ولم يتلفظ بأي كلمة سوى أنه

قال لي بصوت متأثر لاتنسي فطورك، اصطحبني معه إلى المستشفى وهو يمشي بخطوات مسرعة ويمسك بيدي، و أنا أحاول أن أمسك بيده، شعرت برهبة قلق لكوني بين أناس كثيرة و أنا العمياء بينهم لحظة ركوبي الحافلة أحسست أنّني محاطة بأنظار الجميع، اتصل أحدهم بخالي، إنّها أمي كان صوته مليئا بالذعر والاضطراب تزايدت دقات قلبي بشدة، إنّه لا يجيب، أظن أنّه سمع ما يروعه، وماكنت أخشى حدوثه، ولا شك أن شئ ما غير عادي حدث، نعم لقد كانت أمي، قال لي:

_ يبدو أن أختي لن تبيت الليلة معك أيضا يا بنيتي

افترت شفتياي كأنهما تود التبسم، وقلت له مالذي تقصده هل هي أيضا مصابة؟،

جاوبني بكل يأس

_نعم عزيزتي يبدو أنها ليست بخير

أُلقيّت عليّ تلك الكلمات كالسهم المشتعل الذي ينغرس في كومة قش، لم ألبث ثوان حتى انفجرت بالبكاء، دموع تلك اللحظة كانت تاريخ بداية خوف جديد، أدركت في تلك اللحظة أن ذلك الخبر رج أعماقي

وأطلق العنان نحوي لرحلة مع كابوس آخر، كابوس فريد من نوعه كابوس غير الذي أعرفه لشعور آخر شعور غير الذي كنت أراه في ذلك الظلام الذي سكن عيناي منذ أمد بعيد، هذا الشعور أكثر عنفا منه و جورا وأطلقت العنان لتفكيري، كان شعور غريب ممزوج بالرعب والحيرة، شعور يصاحبني منذ سمعت أنّه وباء ولم يكتشف له علاج بعد، حين سمعت أنّه يأثر على التنفس و أنّ أمي تعاني من ضيق التنفس، آنذاك انقسمت حياتي إلى نصفين تشتت تماما مثل الطوب القاسي حين ينصرم ويبدو أشتاتا.. أحسست بيداي متصلبتين باردتين كأنهما بلا حياة و انتابتني رعشة غريبة هزت كامل جسدي النحيل إلى كل ما هو مخيف، غمرتني موجة من الأحاسيس الغريبة، وكأنّني في حلم، كنت أفكر في ما كانوا يقولونه طوال الطريق، حتى لم أشعر كيف وصلت إلى المستسفى ووجدت نفسي أمشي بخطوات مبعثرة، أبحث عمن يقلني إلى أمي، كنت ضائعة مثل الولد الذي ضيّع أمه في الفوضى ولا يعرف ماذا يفعل، وصلنا للغرفة ولمحتني أمي من بعيد، وسمعتها تناديني

وهي تظهر كل ذلك الحب لكي تخفي موجة الأحزان التي غمرتها مثل ما تفعل كل مرة، أوصلني خالي حتى الغرفة، توقفت قليلا و الخوف في انتظاري متلهفا للإمساك بي يضغط على قلبي بإلحاح يفقدني أنفاسي حتى قبل أن أخطو خطوة لأمي، كنت أحس أن كل قوايّ التي جمعتها بكل توتري تخونني، بقيت على ذلك الحال مغمضة العينين أتنفس النداوة بشراهة في ظلمتي، للحظة سماع صوتها، عندما صعدت أدراج المستشفى لأول مرة، لم أكن أقدر على هول تلك الفاجعة عبر بهو المستشفى، واختلط فجأة في رأسي صراخ الناس ونحيبهم وحركة المارة الذين منعوا من الاقتراب من المكان، البحث عن القليل من الهواء، اختناق، حفاظ على الحياة في لحظة هاربة، أحسست نفسي داخل مسلخ ثم سألت نفسي مجددا ما إن كنت مخطئة في قدومي إلى هنا ولا أدرى مالذي حدث لي سوى أنّني سمعت صوتا عنيفا وصراخات قريبة من رأسي ثم شعرت بجسدي تغمره برودة وتوتر، كانت أمي في غرفة خاصة ومنعت من الخروج ولايمكن رؤيتها من قريب

حتى، من أجل سلامة الآخرين، كنت أعلم أن حزنها على بعدي آلمها أكثر من إصابتها بتلك الإنفلونزا اللعينة، اقتربت أكثر من غرفتها، لمجرد وقوفي عند النافذة امتلأت رئتاي وأنفي بروائح الأدوية وأكياس المصل المختلفة، أغمضت عيناي من جديد، وضيقت من تنفسي قليلا لكي لا أبلع كل هذا الكم الخانق من الروائح المتنافرة، حاولت أن أغرق في عالم آخر غير عالم الصراخ والآهات والرعب، ورحت أتخيّل أمي وهي تتشبث بأطياف الحياة ولا تستسلم للموت الذي كان يرتسم في كل الأمكنة، وقطع رنين بكاء تلك الصرخات من جديد، صراخات مملوءة بالضعف والعجز إنّه عجز المفجوعين بأحبائهم، وغمرني حزن عميق لأول مرة ليس لأنني لا أبصر نور الحياة، بل لسبب العجز الذي طالما أنساني ألم ظلام عيناي، ولم أستطع المساعدة ولو بهمسة أو لمسة من أجل هذه الصرخات، صراخ حاد !

رغم شلالات الفوضى والاستعجالات في ذلك الرواق المملوء بالأبرياء العزل، إلّا أنّك لاتملك إلّا أن تميّز الصوت الحزين مهما كان خافتا، ركضت إلى باب

الغرفة، إنّها أصوات أطفال، سالت دموعي رغما عني، فأنا الوحيدة التي أشعر بقلبهم و أقرأ بسهولة ما يختلج في صدورهم، كل ما سمعته في ذلك المستشفى كان خرافي، إنهم يتألمون وبشدة موجات الألم وخشيّة الفراق، احتلت قلوبهم دون رحمة فقدتُ مرونتي منذ ذلك الوقت، فقد كانت مراهقتي تحلم بفيض أحلام عديدة، لكن طاقاتها كبحت وأختفت بخطوط جبين هرمي المبكر من أثر الفقر فكتب عليّ حينها أن أغدو كهلا صغير السّن شاخ قبل أو انه شعرت بأني بعيدة جدا، أحسست بقلبي يؤلمني وينزف كما لم يفعل من قبل، وشعرت بأقصى درجات العجز وبأحاسيس الشرود، باتت صورة بلا عنوان، شعرت بسكون يتوسط صدري، لم يخفق قلبي حتى، وشعرت بأني في قعر محيط ما، كل شيئ ساكن وميّت، أغوص أعماقا تليها أعماق، تاركة كل شيئ فوق السطح، إنّه تشتت هذا الوضع ؟، أنا أراقب كل شيئ بمسامعي عاجزة، كنت أعرف أنهم سيظلون يصرخون حتى يموتون، ليس باليد حيلة، كم ارتفعت الندءات بالمكبرات الصوتية المركزية، لا تتوقف لحظة

واحدة في كل ممر من ممرات المستشفى الكبير، باستدعاء جميع الأطقم الطبية، حالات طوارئ عاجلة ومحرجة، أنا أشعر باختناق، هناك شي أكبر مني يضغط على صدري بقوة، أشعر كأنّني حيوان ضائع بين أدغال البيانات ولا أدري ما مصدر ذلك الإحساس، كيف وصلت إلى هذه الحالة شيئ يصعب تسييره بسهولة يجب أن يتوقف الحال إلى هذا الحد، لم أعد قادرة على التحمل، ماذا كان بإمكاني أن أفعل يا الله الحرارة والبرد الداخلي، هدأ الصراخ قليلا ثم ذهبت إلى مكاني بخطواتي البطيئة غمرتني لا مبالاة يائسة، جلست فوق كرسي مليء بالكمامات لم تذرف عيني أي دمعة، وكنتُ أعلم كلّ الأسباب التي تركت غدد البكاء عندي جافة، وأحدها أنّي أعلم أنّ النحيب اكتفى مني، وأن البكاء أصبح موضة قديمة لا تستحق مني وضع زينتها، لأن أنواع الألم عندما تذاق أشدّها ضراوة يبقى الصمت حينها سيّد الموقف، والقلب لا يحرك ساكنا، وكل ما يواري الوجع، هو خطة محكمة يفتعلها العقل كل مرة للحد من شظايا الألم، واشعال شرارة ما تبدأ في

حرق وحذف وعزل جرعات الألم، تمرد عقلي عليّ، لأن الأحداث الأخيرة التي لقتها مسامعي قد سممتني بضيق متزايد وكنت في حالة الجهد والاحتقان جعلت جسمي متعب في كل لحظة من تلك الفترة التي باتت تهز جسدي بكل عنف آليا، والشيء الوحيد الذي يغدو ببالي هو مالذي يحل بي وبأهلي بعد كل الذي يجري.

منذ ذالك اليوم الذي هدم كياني أصبحت تهاجمني من وقت إلى آخر مخاوف عنيفة تماما مثل الجراد الموسمي، الآن أصبحت أراها في كل لحظة، كان شعوري حين ذاك أشبه بشعور الجندي المقبل على المعركة، وجدت نفسي في مفترق الطرق لقد عرفت و أيقنت أن زوال هذا المرض هو من سيقرر بقاء أمي على قيّد الحياة لأنّها كانت في حالة من الحيرة والترقب حول ضيق تنفسها، عدنا إلى المنزل بحزن كبير، بدأت أشعر بضيق لما يحصل داخل البيت وخارجه فهناك وضع غير طبيعي، فحالنا أصبح على كف عفريت وهاذا ما زاد من خوفي، كان يعتريني هاجس بأن أمي ستموت لهذه الظروف المأساوية قبل أن أراها، لا أعرف لكن لم أجد تفسيرا منطقيا لهذا

الهاجس الذي لم أستطع التخلص منه لأنه كان أقوى مني، لقد أدمى قلبي وأحزنني ذلك الخبر المرير الذي شاء أن يكون سببا في أن يوقع بأحن شخص إلى قلبي في هذه الدنيا لقد أعياني التعب والتوتر حتى أغميّ عليّ ما إن فتحت عيناي وجدت نفسي بسيارة خالي، سألت خالي بصوت متعب:

_إلى أين نحن ذاهبون؟

أخبرني خالي أنّه سوف يصحبني للبقاء عنده لحين عودة أمي للبيت،

تملكني خليط عنيف من الأحاسيس والمشاعر بالرغم من تلك الأحزان التي تجتمع بيني و بين أمي وبالرغم من تلك الحالة المزرية التي كنا نعيشها بسبب الفقر وبرغم تفكيري الزائد في إيجاد حل لمشكلتي رضيت أن أرجع وأعيش معها مقابل أن لا أفارق أمي ولو للحظة، اختلطت عليّ الأمور، لماذا تنتابني كل هذه الهواجس والظنون، أأكون قد خرجت من بيتنا للمرة الأخيرة؟، ولن أعود؟ هل حقا سوف أبتعد عن أمي؟، إنّها حقيقة يصعب تصديقها، أجد الأمر غريبا، كانت مجرد

إنفلونزا، لكن جرى ما لم يكن في الحسبان، أخبرني خالي أنّه سوف يأخذني إلى البيت لجلب كل ما يلزمني أثناء غياب أمي لكنني جمعت كل أغراض أمي التي بحوزتي حتى الأشياء الصغيرة التي لا تعني شيئا لهم لكنه رائحة كوكب كنت أحيا و إياه في مداراته الخاصة المضيئة، أتذكر أنّني جمعت ما استطعت من الأشياء وأخفيتها في سريري، أتساءل مع كل خطوة أخطوها ترى هل حقا سوف تعود أم أنّها سوف تتركني وحيدة، كدمعة يتيمة، استيقظت صباحا لكي اذهب إلى الخالة ليلى وأعرف منها هل من جديد، وهل تم وضع حل لتلك المعضلة، لكن أظن أنّني في كل مرة أنتظر فيها هذا الخبر ستزداد حالة البلاد بؤسا أكثر فأكثر، كنت أقاوم بلا تبصر مصيرا محتوما تعتبره دون أن تقوله لماذا ينبغي أن أكون أسيرة هذا الوضع، لم أعرف من الحياة إلّا القليل وذلك القليل الذي عرفته سأختصره في مرارة الضعف الذي أنا فيه والخوف من هذا المجهول، ومن يدرك إحساس أنك كل يوم تفقد جزءا من النور الذي كنت تبيت ليالي و أنت تتخيله منذ أمد بعيد، كانت أواخر الأسبوع و لم

تأتي بشيئ جديد سوى أن أمي ازدادت حالتها سوءا وكل النتائج كانت تنذربالخطروغياب أمي سيخلف أثرا كبيرا لديّ.. شعرت أنّني مسلوبة تماما من أهم جزء في حياتي، وسندي الذي أتكئ عليه. في بيت خالي أصبح أخي مسؤول بالكامل عني وعن شؤون البيت أما خالي بعد أن أعاد اهتماماته بعائلته الجديدة أي أنا وأخي فأصبح منكسرا متهجما ولم تعرف البسمة طريقها إلى وجهه وكأن كل هموم الدنيا منكبة فوق رأسه، أعتقد أنّه كان في حالة توتر لا تفارقه لأنّه كان ما يزال خائفا على أخته التي قضت كل حياتها وهي تعاني كل أنواع الألم، تلك البداية كانت قاسية وشديدة الظلمة على قلبي الوحيد و تغيّر كل شيئ في حياتي حتى بيتنا كان واسعا أكثر من المعتاد و أكثر انعزالا عن العالم و مسيري من مكان إلى آخر أكثر ألما و إنهاكا، بدا لي ذلك هو الأوان للاختبار على أرض الو اقع و أنّني مقبلة على ابتلاء يكشف لي معدن العمى الحقيقي الذي أنا عليه، رغم أنّني لم أكن لوحدي لكنني كنت وحيدة في تدبر أموري ومقاومة أمواج اليأس

التي بدأت تتردد بإصرار على شاطئي وكل واحد منا يجلس وحيدا في عالمه الخاص.

******

تمر الساعات في ضيق وفراغ و طريقة حياتنا مع خالي كانت تفتقر إلى الترتيب والهدوء بسبب الفوضى، وكلما حاولت ترتيبها أجد نفسي في اختبار مع قلة شجاعتي و أنا أبدي من قوتي كل ما أستطيع فعله، حتى أنّني أحاول بكل ما أوتيت من قوة أن أحافظ على نفس الاتجاه و أنا أمشي بمفردي لأن البيت كان أكبر مساحة مما كان عليه أو هذا ما شعرت به و أنا بدون أمي مشيت طويلا في طريق متعرجة غير ممهدة، وكلما أرفع يداي أشعر أنني في فضاء واسع لا نهاية له و أنّني أقطع جزيرة من شاطئ إلى آخر، تائهة و لا أعرف كم من الوقت يفصلني للوصول إلى الجانب الآخر و مالذي سيحدث إليّ إذا تابعت المسير؟، هل يمكنني المجازفة مرة أخرى إذا لم أصل إلى هناك وكأنّني أعبر كل الممرات الطويلة، كان مثل صراط يوم القيامة _بالنسبة إليّ_ وتطاردني تخيلات أنّني في مقبرة موحشة في كل خطوة أحس أنّها تتطلب مني جهدا أكبر

لتفادي أي خطر وأخطو بهدوء مهيب للأمام، خطوات مليئة بتردد فارغ من كل شيئ، وكل صوت يطرق مسامعي يشوّش عقلي وكل خطوة أخطوها كأنّني مقبلة على وضع رجلي في حفرة لا حدود لعمقها، وكل جدار في المنزل تغطيه مساميرمن كل جانب له وأنّها سوف تمزق كلتا يداي، تفتر الابتسامة على وجهي وإلحاح ذلك السؤال القاسي على شفتاي، مالذي سأعيشه بدل الذي كنت أنتظره؟، ثم أرفع رجلاي كي لا تتشابك بشيء من أغراض أخي المتناثرة في كل مكان، كانت تلك الفوضى تجعلني أشعربالاضطهاد فكنت أسقط عدة مرات بسبب غرض تركه أخي دون حذر أو تنزلق رجلي.. لم ينتبها إلى ما حدث إليّ لأنهما تعوّدا على تلك الحياة، عندما رآني خالي على تلك الحال أحسست بنظراته الدامعة تظهر في صوته وتعبر عن مدى حزنه الموجود في قلبه وما أن يراني يجهش بالبكاء ولا يتمالك نفسه، يضمني بين ذراعيه يرمقني بنظرات الحب والحزن الكبيرين، بدا عليه الهم جليا، من المؤكد أن مظهري البائس أثار شفقته ولوعته، حتى أنا أصبحت عاجزة عن الكلام، لكن ماذا

أقول؟ لم أعرف كيف أعبر عن ما أود البوح به، أصبحت عاجزة عن الذهاب إلى نافذتي ومخبأ أسراري لأتأمل ذلك الظلام و أتخيّل كل ما وددت رؤيته من أنواع البهجة والسرور، سمعت خالي يتكلم مع أخي ويجبره على التقليص من طلباته طالما أن حالته المادية مزريّة، كان خالي مشوّش التفكير في توفير المال لنا وكنت أعرف أنه كثير الهم بسببي رغم أنّه كان متكتم بشأن وضعه المادي، ففرض الحجر منعه من العمل وكان سببا في قطع رزق الكثيرين، فلجأ إلى أعمال أكثر إنهاكا زادت من حدة تعبه وضيق وقته. مرت تلك الأيام و أنا على تلك الحال منغلقة في غرفتي أسبح في صمتي المطبق المليء بالألم والأسى، صامتة شاردة أبحث عن معنى لوجودي في هذه الحياة يلفني الضياع بخيوطه زاحفا فوق رقبتي ليخنقني ويفقدني القدرة على التنفس ويحجب عني الإدراك فلا أرى سوى روحي المشوهة الظاهرة للجميع، كم هو صعب أن يقضي المرء حياته كلها ريبة وقلقا خاصة إن كانت مقتادة للمجهول.

******

مرت الأيام وأصبح هذا الانسلاخ و اقعا رغما عني واللوعة تغمر قلبي، بقيت لوحدي يصاحبني ظلام عيناي فماذا عساي أن أفعل و هل من يقدّر مشاعري و يفهم أحاسيسي؟،

لم أشعر بتغيير مطلق لما حدث، سوى أن الحزن وضع إسمنته الطّفيف على وجهي وجعله صلبا وقاسيا، مغتربة من كل شيئ حتى الأحداث اختُزلت عندي في شكل واحد، زيادة على ذلك التخيّل المقهر للأشياء على غير حقيقتها، ورتابة الأيام، إذ يخيّل لي أحيانا أنّني أعيش في فيلم يشكل رمزا لضياعي، أحب أمي التي لم يعد يربطني بها سوى بعض الزيارات التي لم تشفي غليلي بل زادت في ألمي وتعبي وتأجج لوعتي، كانت تراني من الخارج فقط ولا تستطيع لمسي حتى، وكانت هذه طريقتنا الوحيدة لكي نتواصل مع بعضنا البعض بغير صوت ولا عناق، كانت لحظات مؤثرة جدا كم كنا بحاجة أن نتعانق ونتلامس، كم كنت بحاجة أن أنام بحضنها وأشم

رائحتها، لكن الجدران والحواجز كانت تفرق بيننا. آنذاك انهاركل شئ داخلي، كان مكتوبا لي أن لا أستسلم لتلك الآمال الناعمة التي طالما أصابتني بأرق وأنا أرسمها في ليالي كالحات ردمتها، كنت أعلم أنها كانت تنزعج لرؤيتي وأنّني أفتح لها جرحا لا يندمل بعد، ترى هل كان حال أمي لا يقل سوءا عن حالي؟ وكل ما كانت تظهره من تماسك كان مجرد قناع مزيف ليس إلّا. كم كنت بحاجة إلى أخت أو صديقة لكي تسمعني وتخفف عني من تلك المخاوف التي غمرت قلبي في تلك الأيام العصيبة وتقول لي أنه يجب تقبل الحقيقة مهما كانت عصيبة، ولا أشعر بالذنب حيال نفسي مهما كان الثمن. كم دعوت في نفسي أن لا يصيب أمي مكروه وأن تعود معي إلى البيت، كان ذلك الفراق هو الأول من نوعه بالنسبة لي فلم أتعوّد على فراقها منذ صغري، كنت متعلقة بها لحد الهوس، لدرجة أنّني كنت سأصاب بالجنون أثناء مكوثها في المستشفى، فبالرغم من كل التماسك الذي كنت أتظاهر به، إلّا أنّني لم أستطع أكثر، كان حزني شديدا و عميقا في تلك اللحظات،

خاصة أن الوفيات في تزايد وانتشار واسع لتلك المعضلة في أرجاء الوطن، انكمشت على نفسي وصار عقلي لا يكف عن التفكيرفي رعب حقيقي حررت ما بيدي و وددت أن أضرب كل شيئ بقربي ، دخلت في صراع وحشي داخلي لا يهدأ ولا يستسلم، حياتي هذه تشبعت مرارة بما يكفي حتى تكون شخصيّتي هذه هكذا، شخصا بصفة نصف شخص، لا يغريه شيئ سوى حلم بسيط، لا أعرف كيف أُعرّف نفسي إلى نفسي اليوم، أحيانا أتساءل هل ولدت يا ترى لأشقى ؟ أم أن الرب أنصفني لكون البلاء، لا أريد أن يشفق على حالي الذي بات مثلا يضرب به كل من أصيب بخيبة أمل جعلت منه شخصا آخر لا يود تقبل حدوث أي شيئ آخر في حياته.. كلما حل المساء أذهب لغرفتي أتحسس يدي إلى التلفاز بعض المنوعات الليلية وكان يؤنسني بعض الشيء ويزيل ضلالة الكآبة التي تلف بها العتمة روحي، لحظات ثقيلة على روحي، كلما أتذكر أمي يزداد شوقي وحنيني لها ويتضاعف حزني عليها، طالما كان بكائي كثيرا ونومي قليلا، ومع هذا كنت أفضل الليل في تلك الفترة لكي أعبر

عن أحزاني وأخلو به إلى نفسي بعيدا عن أعين الآخرين، في النهار كنت مجبورة أن أضع قناع مرام الكتومة، وما إن يلوح الغدق أرمي بتلك الدروع جانبا إلى قلبي، كان ذلك المعطف يواسيني بعض الشئ، لكن لم يكن كافيا لنسيان أمي التي ما برح شوقي للعودة إلى كنفها و أستعيد ذكرياتي تلك التي تأبى الخضوع ولا الاستسلام عن الرحيل، كنت دائما لوحدي في غرفتي التي يعمها الظلام أجهش وحيدة تنزل دموعي في صمت و أتذكر أمي، و أتساءل للمرة الألف لماذا طال هذا الغياب أين أمي؟، أقترب من تلك النافذة و أنادي أحدا لمساعدتي، تمددت في فراشي وككل مرة كنت أعلم أنّني لن أنام لكنني مجبورة أن أنام لكي أوفر لنفسي قليلا من الراحة حتى أقدر على كل مسرحيات الليلة ورحت أفكر و أقضي وقتي بالتفكير بأمي ماذا تراها تفعل الآن هل هي تفكر بحالي أنا أيضا أعلم أنها خائفة عليّ، ما ذنبها هي يا ترى جالسة في تلك الغرفة كنبتة بلا جذور إنّها تشعر بهم لا حدود له أعلم جيّدا أنه لم يغمض لها جفن في ذلك المستودع لأنّها تعلم أن غيابها عني يعني الانتحار ونهاية

الحياة، لا أستطيع ان أستوعب أنّها في مكان بعيد عني لقد أنهكها التفكير كيف نفعل بضياعنا المقطوع وبجوعنا المتواصل. جالسة في ركن لا تبالي لم تحدّث إنسانا في تلك الغرفة ولا ترد على مخلوق، الكل يتوهم أنها خرساء أو صماء إنّها تشعر بحزن رهيب لا أستطيع تقبل أن تسجن هناك لذلك السبب، لم أستطع أن أستوعب أنها في مكان موحش مثل ذلك السجن، ليتني أغفو قليلا، كل شيئ الآن هيّن إلّا هذا الفراق، ما أقسى خواطر الأرق حين تكون المسافة بين اللقاء والفراق ليالي انتظار لا أمل من انتهائها، ترى هل يعاني الكل مثلي؟ أم لأنّني عمياء فقيرة ؟ مالذي يحدث معي؟ وما مصير كل هؤلاء الضعفاء؟ ابتلعت كبرياء الإجابة بغصة إلى معدتي، وأحرقتني كسابقاتها، قلوبهم تشعر بالألم وقلبي أنا اعتاد الألم حتى صار مجرد نكهة تلذعه، فأدمن قلبي اللذعات إلى أن صار يتأفف من الجراح انتيابا لسلوك الفجائع وما تخلفه. أصبحت كعود يتداعى، أميل بيّن السّقوط والانتصاب مهزومة بين المقاومة والانكسار، وكأن شيء كالشعرة هو من يحل التوازن بين كفة

التعاجي الثقيلة وكفة مشاعري الخفيفة التي نسيت مقدّسات هيجانها، منذ أن عرفت أنّني حصلت على أمل سوف أرى أحسست وكأن كل شيئ ضدي شعرت بذلك الضعف لعدة مرات لأنّني في ذلك العمروكل يوم أحاول أن أضع حدا لهذا الضياع وأحاول أن أكون أكثر اختلافا من اليوم السابق. كان كتمان تلك الأحاسيس أقسى من الشعور بحد ذاته و ذلك الصمت كان يخيفني أكثر من خوفي من كلامي، ففي كل صمت أسمع دقات قلبي، في كل صمت أسمع أحدا ينادي باسمي، كم تمنيت أن أجد من يقول لي إنّها مجرد إنفلونزا ويهدئ من روعي، كنت أخاف أن أنام و أبقى مستيقظة مثل النملة التي تبحث عن حبات سكر، لكي لايأخذني ذلك النوم إلى عالم الأحلام التي يسوء تأويلها، كم كان موجعا أن تكون تمثالا وعيناك لايبصران إلّا ما تتلقفه مسامعك، كم كان موجعان تعيش كل الأحداث بخوف ولا تعرف كيف تتخلص منه، كنت كلما خلوت بنفسي بجانب تلك النافذة التي هي بالكاد بدأت تمل مني أشتم رائحة خالي وتنهيداته فأتذكر أنّني زدت من عمق تعبه، تشتعل روحي

بل تصل إلى درجة من الهم والغليان، أبتلع تلك الآلام وأخاف البكاء للأمنع خوفي، لا أحد يشاركني خوفي وأحزاني المستمرة، فأعود إلى فراشي وأمنع تلك الغصة التي علقت بحنجرتي. دائما ما أشعربأنني أتآكل ففي رأسي فكرة تطن ولا أستطيع كتمانها، بكيت كثيرا للضعف الذي كنت فيه، هل كانت تطاردهم تلك الكوابيس التي كانت تطاردني أنا أيضا؟، والأشباح التي خيّلت إليّ، إنّها أيام ثقيلة وقد عم الضياع في أرجاء حياتي مما جعل الواقع يبدو أكثر وضوحا وبشاعة، وكان ذلك البؤس يتكرر في كل يوم من تلك الأيام لأنّني أول ما أتذكر حالنا يمتلأ قلبي بكم معتبر من الآلام، جعلت مني دميّة تتلاعب بكل مشاعري و تحركاتي لم أعرف كيف أتجاهل كل صوت يطرق مسامعي و أقسمت في كل مرة أنها آخر مرة، سأتوقف عن تلك العادة لكنني أعرف أنّني أخلف بوعدي في اليوم التالي. تناولت آليا المشط من الدرج بيدي وبدأت أمشط شعري، توقفت لبرهة هل أنا أفعل هذا لوحدي شعرت بنوع من الغبطة والسرور كطفل يخطو أوّل خطواته،

أحسست أنّني أديّت شيئا مختلفا كأن أشياءا كثيرة تغيرت بداخلي نعم أنا التي كانت ترفض أي أحد يلمس شعرها إلّا أمي، هل كبرت؟ هذا مابدا لي في الوهلة الأولى لكن أدركت أيضا أنّني مجبورة على تقبل الاعتناء بنفسي لأن أمي ليست هنا ورحت أمشط شعري، وفي كل مرة يخطر ببالي شيئ جميل تقوله لي أمي أثناء مشطها لي، كانت دائما ما تقول أنّني مختلفة ورحت أفكر بها بتمعن و أنا أمرر ذلك المشط بين خصلات شعري ثم أدركت بحرقة هل كانت تقول لي هذا كوني لست كباقي الفتيات هل لأنّني عاجزة حتى على إحضاركوب ماء، وما ذنبي أنا؟ لا أعرف كيف ألف شعري دائما ما أتخيّله يلتف حول عنقي يريد أن يحرمني من التنفس لم أتمالك نفسي من البكاء كنت مجرد دميّة مرمية في ركن ولا أحد يأبه لحالها، صحيح أن الفرق بيننا ليس كبيرا لكن المهم أن كلتانا فقد من يهتم به، ومن يومها لم يأت أحد ولم يتفقدني أحد و نسيّني الجميع، حتى أمي باتت لوحدها دون رعاية ولا حتى سؤال، فكنت يوما بعد يوم أزداد قناعة أنّني مجبورة على تقبل بعدها عني، كانت كالعادة

تتفقدني وتمشط لي شعري، فجلست وتنهدت ما أتعس حظي كم من الصعب أن أستبدل وجود أمي معي بوجود شعوروحشي يطاردني من مكان لآخر، وأصبحت مجبورة على التعايش معه مثل نزيلان في فندق أجبرا على الاشتراك مع بعضهما في غرفة واحدة، ورحت أبكي مع كل كلمة أتذكرها من تلك الكلمات التي تنشدها كانت ترددها وهي تمشط شعري بكل ود و أنا أبحر بلا حدود في آمال أحلام بريئة، أبكي كلما أتذكر أن وجود أمي أستبدل بخوف يصاحبني أشعر بدفء روحها في كل مرة تغمر أنفي، رائحة يداها العالقة بها و ماتزال نفس تلك الرائحة تتشبث بالمشط رغم وقت طويل، تذكرت تلك الأحاسيس الناعمة التي تغمرني كلما مشطت لي بكل عناية ورأفة، نهضت و أنا أشتم رائحتها و أتأمل أن يعود كل شيئ كما كان، الفقراء لا يموتون تماما لأنهم لا يحيون تماما، حتى الموت بهيبته كان يستقبل بطقوس ويرحل بطقوس، هو حزين و بائس لا أحد يحس بمعاناتنا. أنا أحسد تلك الأفعى التي ترس أنيابها في ذاتها عندما تقرر الانتحار.

استيقظت وفي حلقي ظمأ حاد، وجدت نفسي ألهث من تلك الكوابيس التي كانت تلازمني، اعتدلت في جلستي وتناولت العصى لكي أشرب قليلا من الماء أو أجد أي شيئ أسد به جوعي، لمجرد وقوفي شعرت بدوار يلف عيناى ورأسي غمرته كهرباء من الصداع، ثم عاودت الجلوس بسرعة بمكاني، إنّه الدوار راودني كأنه عاود رجوعه إليّ، لم تدخل فمي لقمة منذ أيام لأنّني كنت أعاني من شهيّة مفقودة للأكل، لكن كيف أجد شيئا آكله، لا يجدربي إيقاظ خالي في هذا الوقت المتأخر، ما الذي يجدربي أن أفعله وهل أبقى طول حياتي أنتظر من يقلني إلى أي مكان؟، رحت أمشي بحذر كبير خطوات خارج غرفتي ودقات قلبي تتسارع كانت تلك أوّل خطوة أخطوها بنفسي ورحت أتحسس الجدران بيداي متوجهة نحو باب غرفتي، كانت خطواتي مبعثرة و أنا أستعين بيداي يمينا وشمالا، كان شعوري ممزوج بين الخوف ولهفتي للوصول بسرعة دون وقوعي في أي مكروه من الاصطدام بشيء، طيف تلك الذكرى الأليمة

ما يزال راسخا في ذاكرتي حينما اصطدمت بالحائط وامتلأ أنفي بالدم، لم أنس بتاتا ذلك الشعور فقد ملأت البيت بصراخي، واصلت المشي بتلك الخطوات التائهة ولا أعرف أين أنا و إلى أين أتجه، توقفت فجأة عن المشي كما بدأت وكنت مرفوعة برغبة ملحة للجلوس لكي أشعر بالأمان ولا أسقط بطريقة بشعة، شعرت بثقل في تلك المحاولة أحادية الجانب لا أنكر أنّني شعرت بخجل من نفسي و أنا أحبس أنفاسي ثم أطالعها بجمود، كنت مثيرة للشفقة حقا، غريبة و محرومة من كل شيئ، مسحت عيناي من تلك الدموع وتقدمت بخطوات أخرى للأمام حتى لامست سرير أخي عرفت أنني في الرواق، نعم كان ذلك السرير الوحيد ببيتنا، ثم تحسست بيدي المكان طمعا أن أجد أخي وأطلب منه ذلك بدل هذا الجهاد الذي أقوم به، فلم أجد أثرا له هناك شعرت بمغص كبير، أين تراه يكون؟ أرجو أن لا يكون قد أصيب بمكروه، جلست مليا على السرير لأستريح، أنا في الرواق ثلاث خطوات لليسار ثاني غرفة هناك يوجد المطبخ، منذ غياب أمي أصبح المطبخ

مملكة لقطتنا، كأن أصوات المواء كثيرة إنّها تبدو سعيدة لدخولي إليهم، كيف لا وهي تحظى بالدفء والنور وليس لديها من يطاردها، فكل واحد منا أصبح يسبح في حظه من اليأس وأصبح المكان فارغا لها بأكمله، مكثت لبرهة كما أنّني استمتعت بإنجازي ورحت أفكر كيف أصل إلى الثلاجة، أرجو أن تكون موجودة، وضعت يدي من حافة الباب ووضعتها بالحائط أمشي بخطوات متتالية أنتظر التصاقها بشيء ضخم كثلاجة أو ما شابه، ورحت أمشي بتردد كبير أنتظر أن تصطدم يدي بالثلاجة، كما أنني كنت أنتظر أي سقوط مثل كل مرة أخاطر بنفسي و أقرر الاعتماد على نفسي، أما هذه المرة كنت على استعداد لسلسلة من العثرات دون الرجوع إلى سريري منكسرة ككل مرة، أيقنت أنّني أنا المسؤولة على كل ردة فعل مني تجاه كل سقوط، كل ما عليّ فعله هو تجاهل أي وقوع لأنّني أيقنت تماما أن ألم تلك العثرات لا يساوي شيئا أمام أن تعيش ألم انتظار أي مخلوق يمنحك قليلا من قوته لأداء شيئ معين وهي نفسها القوة التي وهبني الله إياها، لا أنكر أن تذمري و يأسي الكبيرين على العمى

الذي كنت عليه حجبا أشياء كثيرة و جميلة عليّ في هذه الحياة. أحسست بدوار للمرة الثالثة حقا لست على ما يرام !، قلت في نفسي بتذمر إنّه الحائط الأخير، أبطأت من مشيتي قليلا خفت أن أصل بسرعة إلى نهايته ولن أجد هذه الثلاجة، يبدو أن أخي قضى على وجودها، فنحن تعودنا على هر ائه الغير متوقع، فإن لم نلبي طلبه بالمال يأخذ كل ما لمحه البصر ويأتي بدنانير لتلبية رغباته، هاه أخيرا لا تزال هنا كدت أبكي من فرحتي، أخذت نفسا عميقا ونفخت في يداي بنفس دافئ لأزيل قليلا من برودة الحائط المتلاصقة بأناملي ونفضتهما من بعضهما من الغبار الذي علق بيداي ثم هممت بفتحها، أمسكت بمقبض الباب سحبته إليّ مرتين ثم توقفت لآخذ نفسا عميقا، أقسم أنّني كنت مرهقة لدرجة عدم استطاعتي سحب باب الثلاجة و لم أقدر على فتحها حتى، كنت أعاني من إرهاق شديد، حتى القوة التي كنت أحتفظ بها أهدرتها في توتري الز ائد فكلما تأثرت أكثرزاد إرهاقي أكثر، أمسكت بالباب بيداي الإثنتان وتشبثت بهما جيدا وسحبته بكل ضعفي، شعرت بتحرك رهيب

للثلاجة كأنه صوتها وهي مقبلة على الوقوع، وضعت يداي على أذناي بيدي فورا وبقيت جامدة بمكاني لم أستطع تحريك رجلاي لشدة خوفي، وهزت ركبتاي رجفة عنيفة وتزايدت دقات قلبي حتى كاد يخرج من بين ضلوعي، كان صوتا مخيفا أغمضت عيناي بقوة ثم عاودني ذلك الدوار من جديد، جلست بسرعة أنتظر حتى زال الدوار عني ثم وقفت من جديد، لا أظن أنه سوف يسقط ، مددت يداي الصغيرتان إلى جوفها متمنية من كل أعماقي أن يلتقيا بأي شئ يأكل كأن بها اتساع كبير من الداخل، واصلت البحث و أنا أتحسس بيداي كل الأدراج من زاوية إلى زاوية راجية أن يتحقق ذلك المنال، كأنّني وجدت شيئا تحسسته بأناملي سحبت يدي قليلا لمجرد أنني أمسكتها بقبضة مني لا تقدر على حمل نملة حتى انسحبت للوراء بفزع كبير، تشابكت رجلاي وسقطت مطروحة على الأرض و أنا أتأوه بألم ووضعت يدي على فمي، هطلت دموع من عيناي بعد سقوطي لم أُلق لها بالا، فما هي إلّا فائض من المعاناة والتوتر لما كبسه التكرار الذي يقلده الوجع، صعقتني

الكهرباء بلا رحمة لم أنتبه فالأسلاك كانت متلفة تقدمت للأمام للوقوف و أنا أتمتم بتذمر تبا ولماذا هو مشغل إذا لم يكن ينفع لشيئ، سوف أطلب من أخي أن يأخذه ويرمي به في أي مكان، كنت ألهث من تلك الصدمة، كانت أكثر من ألمها لقد كنت أرتجف، أمسكت بعصاي ثم تقدمت قليلا للوقوف والعودة إلى غرفتي، شعرت بشيء أمام وركي بجانبي، كأنه كيس !؟ بقيت جالسة لما كنت عليه ثم أدرت بيداي للوراء و أنا أتأوه من حدة الصعقة لأتحسس بيدي مكانها، كان شيئا له شكل مستدير ثم اعتدلت بجلستي نحوها بكل يأس أيرجح أن تكون تفاحة ؟ نعم كأن عليها غبار؟ لم يكن ملمسها ناعم كالمعتاد!، لا يهم سوف ألتهمها بعد غسلها، لقد تعبت لمجرد أنّني قمت للبحث عن قليل من الماء، لا وجود لأي قطرة بالمطبخ لا حياة في هذا المنزل، مسحت عليها بيداي و أنا أمررهما بلهف وأسرع لكي أزيل ما يمكن من هذه التربة المترسبة و أنتهي بوضعها بفمي و أتخلص من ذلك الجوع المريع، ما إن وصلت إلى فمي غمرت أنفي رائحة لم تعجبني ولكنني لم أستطع تقبل أنها رائحة

شيء متعفن وله مدة من البقاء في ذلك المكان، نهشت منها بسرعة برق في فمي كي لا أستطيع رميها بدأت أمضغها بامتغاص، كان طعمها مقززا لا علاقة له أبدا بالتفاحة ولا بأي ثمرة تشبهها، ثم رحت أتلفت يمينا ويسارا كي أتخلص منها لا أريد ابتلاعها!. قلت في نفسي بتأثر وليكن سآكلها إنّها جيّدة.. متوسطة.. حسنا المهم أنها موجودة بالمطبخ، إنّها قابلة للأكل إذن، هه يا للسخرية. شعرت بيأس كبير بعد دقائق من الفضول كنت أظن أنها (بطاطا) فوجئت أن لها شكلا كالتفاحة لأنّني طالما كنت آكلها مطبوخة، تلك الرائحة جعلتني أرغب في التقيئ، ثم تخيّلت للحظة ترى ما الذي سيحدث لي بعد أكلها؟ لكن ماذا عساي أن أفعل وكيف أقاوم هذا الجوع الموحش؟، وضعتها بتذمر وجلست أتنهد مكومة في ركن بجانب باب ذلك المطبخ البائس، فلفتتني تلك الحقيقة المثيرة للانتباه التي ظن الجميع أنها شيئ عادي، أيعقل أنها ليست تفاحة وهي مستديرة هل من المعقول أن لها شكل التفاحة اللذيذة وهي لا تحظى بأي شيء من اللذة أو الرائحة ليست زكية بالمرة،

لا أنكر أنّني شعرت بحسد وغبطة كبيرين لكل من أبصر بحياته، ترى ما إحساسهم عندما يرون كل يوم شيء يختلف عن الآخر ما هذه النعمة!، كم تمنيت أن يعرض يوما من الحياة التي أعيشها كفيلم بنفس هذا السواد الذي يغمرني الآن و يدرك الكل ما هو الشعور أن تعيش حياتك بلون واحد وكل سنوات عمرك بفصل واحد، تأملت في نفسي مليا وقلت:

هه يالا سخرية القدر حتى أنا أشبه باقي الفتيات بشكلي فقط، لكن لا وجود لأي نورولا بهجة ولا حياة مثلهن لا أجيد حتى الطبخ لنفسي. وضعت يدي على قلبي بألم وحبست أنفاسي ثم نهضت وعدت بخطوات للوراء إلى غرفتي أتخبط في مشاعري المبعثرة بين الغضب واليأس في قرارتي، تمنيت أن تكون غرفتي غير بعيدة كما ألفتها منذ غياب أمي، فحالات الضعف الذي أصبحت عليه وغير المألوف غيّر رغباتي البشرية، دخلت الغرفة وخيّم الصمت من جديد، وأخذت أتململ و أتقلب دون أن أجد للنوم سبيلا ومشاعر الإحباط التي قضت مضجعي منذ فراق أمي، و أنا أعيش حالة من الإنهاك المزمن لأنّني

صرت شبه مقتنعة من قناعة لا مهرب منها أنّني سوف أكمل أيامي و أنا على هذه الحال، وبت أعي ذلك بمنتهى الرعب، وبينما أنا أسبح في أفكاري خطر ببالي أن الخالة ليلى قامت بإحضار شيئ ما، لقد قالت سوف أضعه فوق طاولة التلفاز، الطاولة التي باتت وحيدة هي أيضا تصارع ذلك الصمت ولا نعرف أين انتهى المطاف بذالك تلفاز هو أيضا مع أخي، فتلك الطاولة كانت تثير شفقتي كثيرا، ومن يصدق أنّني كنت أشعر بحزنها وأسمع أنينها اللامتناهي، وهل كان بالشيء الهيّن؟، كنت أتخيل بكاءها في كل ليلة و أتصور حزنها، ومن يدرك إحساسها ويهوّن عليها حدة ذلك الألم، أنا على يقين أنها سوف تنهار بعد أسابيع، سوف يتآكل كل شي فيها حتى يصبح خشبها غبار يتطاير مع كل زوبعة في منطقتنا الشبه صحراوية، لأنه وبصراحة أنا الوحيدة التي تحس بها، هناك آلام لا يعرفها إلّا من عاشها، ولا أحد يعرف شيئا عما تسببه، لأننا نضعها في صدورنا ونغمض أعيننا و نفضل أن تبقى مدفونة نعم، صرت أتخيّل ألم الفراق في كل شي، حتى أنّني تعودت أن أقوم بلصق كل شيء

بشيء يخصه، حتى أنّني صرت ألصق نعلاي ببعضهما جيّدا بعد خلعهما وأشعر أني ساهمت بلم شمل بعض القلوب ومنعها من تجرع لوعة الفراق، وكنت متمنيّة من أعماقي أن أجازى من جنس هذا العمل، و أجد من يقول لي أن أمك على ما يرام وهي تنتظرك على أحر من الجمر، ويجمع بيني وبينها فأشبع عيناي من نوروجهها، هناك انتابتني نوبة عنيفة من البكاء الحاد، ورحت أبكي بحرقة لمجرد ذكر اسمها أبكي و أحرص على كتم تلك الشهقات الجارحة. طالما كانت أمي تمنعني من إظهار ضعفي لأي أحد مهما كان، كنت مجبرة للقيام بتلك الخطوات ولقد كان طبقا من الحمص الذي أشعر بالغثيان لمجرد سماع اسمه أو شم رائحته، وماذا عساي أن أفعل؟، سوف أتناوله مجبرة، واصلت خطواتي ثم وضعت عصاي على جنب الطاولة برفق حتى شعرت كأنها تتحرك، لقد كان حدسي في محله، لقد بدأت بالانهيار هي أيضا، تحرك الصحن لتحركها كأنه فارغ على حسب الصوت الذي تلقته مسامعي، تحسست بأناملي حوافه كان فارغا أيضا، صعقت

للمرة الثانية، إذن بالبيت من هو متعوّد على أكل هذا الطبق وربما يحبه أيضا، مستحيل أن يكون أخي، لا أنسى ردة فعلة البائسة عندما تقوم أمي بطبخه، هل كان خالي ؟، بالرغم من أني متأكدة لكره أخي وخالي لمثل هذا النوع من الأكل، تمنيت أن تكون لدي تلك القابليّة التي يمتلكها خالي للتكيّف بسرعة مع الوضع، لدرجة أنه قام بالتهام صحن بأكمله من الحمص.

******

الأسبوع الثاني...

ازدادت حالات الوفيات وكذا عدد الأشخاص المتواجدين في العناية المركزة وبطبيعة الحال عدد الإصابات بلغ الذروة.. كثرت أصوات البكاء والعويل المنبعثة تقريبا من كل شارع، وازدادت حدة القلق والتوتر عندي، لا تسمع سوى أصوات بكاء ممزوجة بأنين وعبارات المواساة التي يتلاقاها أولئك المفجوعين بموت أحبائهم، لم يتغيّر شيئ سوى أن الأخبار بدأت تزداد وضوحا مع الوقت وأصبح الحال أكثر بؤسا مما كان عليه، كنت أحصي تلك الآلاف المؤلفة كل يوم لكي لا أصاب بالجنون، كنت أحصيها مثلما يحصي المرهقون النجوم عندما يصابون بالأرق، كانت في تزايد كبير، وماذا يفعلون رحمة الله عليهم ويضافون إلى قائمة الشهداء التي تنسى بسرعة، صرخ صوت داخلي هذا كابوس هذا عقاب، لماذا نحن ضحيّة هذه الفاجعة؟

أصحاب الطبقة الهشة التي لا معنى لوجودها في هذا الكون، هذا المشهد المترجم الذي بدا لي حينما كانت تلك الأصوات تعتري مسامعي، إلّا ما كانت تبدعه الخيالات المنهكة للأفراد والجماعات، ما كان مجرد حادث. جلست على سريري و أنا جامدة لا أتكلم مندهشة من الوضع الذي يكسرني إلى مئات من القطع وروحي التي انقسمت إلى أجزاء مهشمة، صرت كل الوقت أفكر وتعتريني هواجس ضخمة و أتخيّل أشياء لا تخطر على بال أحد. فالموت المفاجئ جعل تفكيري سلبيا ومليئا بالمخاوف في تلك العزلة..الصمت...الفراغ....سيف الرعب المسلط فوق رؤوسنا كظل ثقيل. ضائعة فقط ومشتتة، لم يعد لدي شيئ لأفعله، أين أنا؟، أين أذهب؟، كانت ذكرياتي مع أمي تنهال كالسيل الجارف أهرب إلى الو اقع فأجده كالحا مدلهما، أفر إلى الو اقع سراب ليس حقيقة. حتى البكاء يستعصي عليّ الآن لما سببته هذه الأحداث.

مستلقيّة على سريري، منهكة من كل شيئ، لست نائمة لست صاحية إنّني فقط أنتظر، هذا هو الفجر؟، أم

تراني واهمة أستعجل قدومه تراه هو؟، أم لا، مهما حصل سوف يأتي لا محالة فالإرهاق الذي أحسه هو إرهاق من قضى الليل بأكمله ساهرا، بل إني أحس بالنعاس دون القدرة على النوم، لعلي غفوت ربما لثانية أو ربما لعام لكنني أشعر بأرق آخر للحظة أنّني أتخيل مالذي ينتظرني بعد نهوضي، صرت مطاردة من كل شيئ لقد عوّدت نفسي أن أنام في أمكنة معزولة عن كل شي وعلّمت نفسي كيف أتكيّف مع ما هو حوّلي من عذاب بل وتعلمت حتى كيف أنام في جو مليء بالصراخ والفوضى، على أصوات تلك الأخبار التي تنقل حال الأهالي وهم يعبّرون على تلك الأحزان. اليوم علي أن أتعلم كيف أتعوّد على نصف التنفس و أضع الوسادة على ثغري و أنفي لكي أهيئ نفسي لما يدورفي رأسي، بدأت أشعر بضيق كبيرفي صدري ولم أستطع أن أتنفس وكأن روحي تقتلع عن جسدي، كانت محاولة صعبة من أوّل تجربة، وبعد فشلي هذا أصبت بنكسة وبدأت أفكر في حال أمي كيف هي يا ترى؟، متى أذهب لزيارتها؟، رغم أنها زيارات موجعة إلّا أنها أصبحت مخبأ أحزاني و آلامي،

ذلك المستشفى أصبح خزانا للأحزان فوجدت نفسي مخيّرة بينهم بروح مهمشة وقلب صابر كلما وصلت إلى هناك لم أستطع تمالك نفسي من تلك الأحاسيس التي تفترس قلبي وتغمرني نوبة بكاء عنيفة، تعاود مراودتي مرارا، كيف لأم على حافة الخطر أن تقضي أيامها وهي تدري أنها ليست على وفاقٍ مع كل ما يحدث، لكن فوق طاقتها أعلم بماذا تحس كم من الحزن والوجع قد دفعها لتضحي بحياتها من أجل لقمة عيشنا لقد نهبت منها الحياة أكثر مما أعطته لها، سرقت جهدها وكل حياتها، لم ترغب في قول شيئ، كل شيئ فينا كان معلقا، لم أقتنع سوى بشيء واحد، كل يوم أزددت بعدا منها أزداد يأسا من اليوم السابق، لأن كل يوم يمر عليّ بدونها بل كل لحظة، تربطني بروحها أكثر. سقطت عبرة من عيناي لم تكن تلك العبرة حزينه كباقي العبرات، بل دمعة شوق، كم تمنيت أن ألقي بنفسي بين أحضانها وأخبرها بكل ما يحزنني ويخيفني، و اني حقا بحاجة لها، دعوت ربي وتضرعت إليه أن يشفي أمي، مالذي تحسه بعد أن شعرت أنها بعيدة عني و أنا لا أجيد أن أخطو خطوات

بدونها إنّها أصعب لحظة في حياتها.... صمت مطبق تكسره الصرخات الطويلة المستغيثة تملأ الرواق لا تنفس!، الجميع تأثر ويحاول النجاة من الهلاك هروّلت الممرضات باخراج أكبر قدر ممكن من المصابين إلى الرواق لضيق الغرف التي امتلأت بها الحالات الحرجة ، منها من هو بين الحياة والموت، منها من يحاول التنفس بصعوبه بالغة، ومنهم من يصارع سكرات الموت، أهالي المصابين يبحثون عنهم بلهفة وشوق وهم لا يعلمون أنهم قد ماتوا وفارقو الحياة ما هذه الأصوات؟ سيظلون يبحثون عن الأوكسيجين، ولكنهم شيئا فشيئا يغرقون في أحضان سرير ذلك المستشفى الذي صار مستنقع رمل متحرك. كم كان مروّعا أن أشاهد إنسانا يموت دون أن أقوى على أن أفعل أي شيئ من أجله غير سماع تلك الآهات، كان المستشفى بأكمله يرتجف خوفا، أصوات الأطباء، رائحة الأدوية التي ظلت عالقة بالأنف تجعلني أشعر بالغثيان، أي جنون يحتاج إلى هذه المهزلة صار من الصعب أن يحدث مشكل منطقي لنا سليم كبقيّة الناس، كم أحسدهم على صلابة قلوبهم، هذه

المعضلة الأليمة ظلمت كل الفقراء وهم يشربون من نبع الحرمان. بعضنا يرحل، بعضنا يصارع هذه الأيام الثقيلة، بعضنا يريد أن ينتحر، والكثير يضحك والبعض ليس له علم بالذي نعيشه، وصل بي المطاف إلى اشتهاء الموت، أبيت الليل بأكمله أستنجي بمجيئه، فهذه الأخبار تغيضني وتحطم قلبي، أشعر بتلك الغصة مرارا بينما أنا في بطن الحوت الذي ابتلعني، حوت الخوف و الوحشة أخنقني أكثر، لي أم بالمشفى أقرب إليّ من نبضات قلبي يأبى هذا المرض أن يتخلى عنها و أب بالقبر خلّف بغيابه عنا فراغا لا حدود لقسوته، وأخ لا أعرف ما المصير الذي يواجهه هو أيضا، ولي آمال معلقة بسراب لا أمل بتحقيقها على أرض الو اقع، بعد أن أصبحنا نبيت الليل بأكمله نرسم مخططات للحصول على قليل من تنفس، و أشخاص يحبونني لا أريد أن أبوح لهم بكل هذه الأحزان، إنّهم يشفقون على حالي الآن، ربما كان بعضهم يعذب في هذه اللحظة من الألم و أنا لا أدري بعد أين انتهى المطاف بكل واحد منهم، فهم أيضا كانوا مثلنا لاحول ولا حيلة لهم. عدنا إلى البيت ولم أسمع أي

شيئ مما كنا نوّد سماعه، حالة أمي تزداد سوءا،تعاني من ضيق كبير في التنفس بسبب مرضها المزمن، طول مسافة الطريق و أنا أفكر في حالها ويعذبني شعور الفراغ الذي خلفه بعدها عني بقدر حاجتي الماسة لقربها مني، مزال الشعور بالضياع يراودي رغم أن لها مدة بعيدة عني لقد ضاع مني الإحساس بالأمان تماما. خصوصا أنني فكرت للحظة عند رجوعي لذلك البيت مالذي بانتظاري، كفي عن اليأس تعبت أنا تائهة، كل ما كنت أحتاجه آنذاك أن أكون في مكان فيه أمي، فيه صوت عادي، أصوات بشرلا عزلة، لا بيتنا، بالرغم أن الأصوات التي كانت تطرق مسامعي أثناء رجوعنا هي بالتالي أصوات مملوءة بلامبالاة بائسة، الحياة تسير على ما يرام عند الآخرون!، قلت في نفسي إذن أنا من يبالغ بالأمر أم هذه حقيقة أم الكل يعيش سعادة مزيفة؟، أرفع عيناي مجددا إلى الأعلى وأمنع دموعي من السقوط، أشعر بالغبطة على ما يبدون عليه أولئك الناس، أليس لديهم أشخاص يخافون فقدانهم، ثارت مشاعري آنذاك إلى حد الغليان، أنا العاجزة الوحيدة،

عدد ضخم من البشر يضحكون ويمرحون، بل كل الناس، كنت أحس أني فقط من يشرب من كأس الضياع حتى اكتفيت، وكيف السبيل إلى التأقلم مع هذا الواقع الأليم؟، ربما أنا من يبالغ بالأمر، ظللت أسبح في تلك الأفكار وأنا شاردة ضائعة، تعبت حقا، كلما حاولت التوقف عن التفكير تراودني فكرة أوسع وأعم، وتطفو فوق سطح تفكيري رغما عني. علاقتي بالأشياء كانت عبارة عن سلسلة معقدة من التخيّلات، ليس لدي من يشعرني بالأنس، أشفق على حالي في كل دمعة أذرفها و أصل إلى حد من الفراغ أكبر من الذي سبقه، أحاول أن أتخلص منه بأي طريقة، وصلنا بسرعة حجم خوفي إلى البيت. يهرب الكل إلى النوم، ورغم كل هذا وللمرة الأولى لم أكن بائسة بقدر ما يجب أن يكون الإنسان جائع ووحيد ومذعور ومهدد بالموت جوعا أم حزنا أو ربما خنقا، وهو مجروح القلب و ضعيف مثلي، بل بدا لي الأمر ملفتا للانتباه تراني هل بدأت التعوّد على كل هذا؟، ليتني أستطع أن أنام أنا أيضا لقد أرهقني التوتر وكثرة التفكير.

خيم الحزن على البيت الذي أصبح مرتعاً للأحزان، هدوء.. هدوء... الهدوء هو الأسوأ أينما يحل، غيمةٌ مثقلة بالصمت، يُمسي الزعيق الذي بداخلي مسموعاً أكثر، ويطفو إلى سطحي أنا أفتقد أمي وبشدة.. بيّد أنها لم تعد على أية حال، كبرت على يد الحرمان وفي أحضان الفقر. بينما أنا غارقة في خواطري الكئيبة، كان الجو عنيف، الرياح تهب بكل قوة، لم أعرف مالذي يجب فعله، السماء تمطر، إنّها تمطر على القبور أو ربما لتسقي الجثث التي لا قبورلها. اقتربت من مكان الطاولة الوحيدة انطرحت على الأرض منهكة من كل أنواع التعب، لماذا يسكن اليأس سهولي وحقولي ولا تنبت فيه نبتة أمل خضراء، أتسائل ترى كم تجربة فاشلة أمربها لكي أقبل أن أستسلم لهذا اليأس؟. وأرفض أيّة محاولة لانقاذ نفسي من الهلاك أو أستسلم للثورة التي تسكنني عبر التقبل لا عبر الرفض، مازلت بجانب تلك الطاولة إنّها وحيدة مثلي، كلانا بدأنا نستسلم للموت ونحن نحمل معنا أشياء من الفراق واليأس وهو نفس اليأس الآن الذي يداعب مشاعري في كل يوم وليلة، يبدو أنه لن

يزول أبدا بعد أن رسخ فينا هذه الجريمة بشكل طبيعي، كم أنا متعبة وجائعة، أحاول عبثا النوم عاجزة أن أتسلل و أتحسس شيئ لأقوم بأكله، أرجو أن أجد شيئا أحضرته لنا الخالة ليلى، كأنني أشتم رائحة لحم؟، كأنها رائحة لحم بشري !!؟ لا لا وخيّل لي أن الطبق يتحرك باتجاهي، ومأساتي أنني أصبحت أقرف من اللحم، صرت شبه قانعة أن اللحوم المتوفرة بالأسواق هي لحوم بشريّة ولم أكن قد أصبحت حيوانا بشريا بعد، ومن يقنعني أنني لا آكل قطعة من ذراع شخص مقرب إليّ ربما كان أحدا من جيراني الذين طالما لم يقصرو يوما معي، إذن أين ذهبوا بتلك الجثث الهامدة التي لم تحظى بدفن يليق بها حتى؟، وخيّل لي أن الجثث هي التي تصرخ وتبعث تلك الأصوات التي تتلقاها مسامعي، تغمرني نوبة أخرى ليست نوبة بكاء، ولا نوبة يأس، كأنني أفكر في فكرة بائسة، قد لا تخطر على فكر فتاة بهذا الوقت، إنّها بداخلي تطرق عليّ جدران رأسي بعنف!. مالذي سيحدثُ لو أن هذه الأصوات غير الطبيعية مبعوثة من تحت سريري أو أنه لا وجود لها

على أرض الو اقع و أنا فقط من يسمعها ؟، لم تقُم هذه الفكرة بتركي و أشعرتني بالخوف، لا لست واهمة، الصوت الذي أسمعه قادم من النافذة حقا كأنها ليست أصوات بشرية، أشم رائحة لحوم متعفنة، هل تراني أحلم، انطلقت في عجل أغادر غرفتي في توتر لاهثة مثل الغريق في البحر والخوف يعاودني كل ثانية، لم أستطع الوقوف هناك ولو لحظة هرعت مسرعة لا أدري إلى أين؟، هنا أيضا أصوات لكنني أضيع فيها حتى الآن كُلما حاولتُ التوقف عن البكاء، كُلما زادت رغبتي به، لكن ما الذي بوسعي فعله؟، عدت وتكومت في مكاني ذاهلة أنصت لتلك الأصوات ثم أخفيت وجهي بين يداي و أنا أشعر أن هذه الأزمة تنسج خيوطا جديدة، ما هذا الرعب؟، رجفة أخرى، يتصرف عقلي الآن كجهاز حاسوب أصابه العطب أظن أنني مجنونة! محتاجة إلى مصحة عقليّة وليس إلى مستشفى، لم أقدر على حبس دموعي مرة أخرى لا يمكن لأحد أن يرتاح حين ينفجر هذا النوع من الزعيق في رأسه، أصوات وتخيّلات تتقافز على الشاشة، لا علاقة تربطها ببعضها ولا تنسيق هناك

أصوات في كل ركن من غرفتي إنّها تستمر بازعاجي و بالهجوم عليّ حتى من داخل أحلامي. أشعر بضعف كبير ووحدة مقلقة، مخي لم يعد قادرا على التفكير، أحاول كتم الصرخات التي أود أن تنطلق من صدري، تسبح روحي بمتاهات تحاول الهروب من كل زاوية، أصوات استغاثة.. إنهم داخل الغرفة يمشون مثلما كانت أمي، رائحة الموت..!؟ الآن أسمع أصواتهم الآن في وسادتي تكومت في فراشي، صارت غرفتي موقعا مثاليا لرواية مرعبة أو فيلم عن مصاصي الدماء، أدركت أنني لست على ما يرام و أنني مشوشة بالكامل، كلما لزمت الصمت يزداد اضطراري إلى الإستجابة إلى تلك الأفكار أكثر و شعرت بخطورة ذلك الصمت تتضخم، لم أعد أقدر على تحريك شيئ من جسدي، صرت أكثر خوفا من قبل ليتني أستطيع أن أرحل قليلا إلى مدينة النور بدلا من قضاء الليل في محاولة دفع الكرة الأرضية كي تدور أسرع بقليل، لم أستطع إغماض عيناي ولو للحظة، موجات من الذعر اجتاحتني، بقيت لوحدي طيلة تلك الأيام المخيفة أعاني من تلك الكوابيس التي تنفجر داخل

رأسي أم تراها تنفجر عند الآخرين أيضا، خائفة ووحيدة و أنزف من الداخل فقط، تقلصت في فراشي وشعرت بسلام غامض يلف روحي، السلام نفسه الذي يغمر المجانين، سلام ما وراء الألم، هذا ما أحس به في كل ليلة من تلك الليالي. صرخت بخوفٍ ر افقه جريان دموعي، أكره صوتي حينما ابدأ بالبكاء، يبدأ دماغي فورا بالعمل ضد ضعفي، وبملاحقة أعضاء جسمي الضعيفة، ورحت أتخيّل بأني محاطة بين أولئك المخلوقات و قد صرت مثلهم أيضا.

حياتي تشبعت مرارة بما يكفي حتى تكونت شخصيّتي هكذا، شخصا بصفة نصف شخص، لا أعرف كيف يمكن أن أعرف نفسي إلى نفسي اليوم، أحيانا أتساءل، هل ولدت يا ترى لأشقى؟ أم أن الرب أنصفني لكون البلاء نعمة يهبها لعباده؟ هل حقا أستحق هذا العمر بعد أن كنت عثرة شؤم بعد ولادتي؟ هل أنا يا ترى من علامات الغضب، وأن وجودي هاهنا يعكر صفو الحياة التي ما فتئت تأخذ كل جزء مني على حدة، تبعثرني وتنثرني كيفما شاءت؟. لا يسعني التفلسف في الأمور التي

شكلت ربوة ما أنبتت بذاخة الحزن المقيم في جوفي، وأعلم جيدا أن هذه الحياة وأرضها لا تستحقان مني ردة فعل تجاههما، فدورة عمري اختصرت في مآس رتيبة ومترادفة كأن حدوثها وجب كي يتناسب مع كل شيء، و الذي ألم قلبي أكثر ليس الموت بحد ذاته لكن الفقر الذي نقاتل لنناهي به، يكون أوّل من نظم لنا الموت بهذه الطريقة وسيموت الكثير من البؤساء بهذه الطريقة، وماذا عساي أن أفعل فالذنب ليس ذنبي، بل كان ذنب ثمرة نضجت في رحم الفقر واللامبالاة عام بعد عام، مزال يعذبني شعور الفراغ الذي خلفته أمي، خصوصا الشعور باليأس والحاجة الماسة لقربها، ترى ما الذي يجعلني أشهق بالبكاء لمجرد ذكر اسمها؟، أظن أن السبب الأقوى من هذا هو أنّني لم أتعوّد الغربة الجديدة، بقيت على تلك الحال مرمية خارج المكان والزمان حتى وجدت نفسي أنزلق إلى النوم لكي أحظى بقليل من الهدوء و أريح أجفاني ولو للحظات، على الرغم من أنه كان نوما قلقا مضطربا يشوبه مغص غامض مؤلم في أحشائي أم لأنني مريضة!، لا أقوى على

التقلب إلى الجهة أخرى لا أريد أن أنام باتجاه النافذة، كان عليّ أن أغسل كل حواسي في تلك الليلة، لم تكن تلك المخاوف وحدها من أرعبتني و إنّما صوت بكائي هو من أرعبني أيضا، أصابني بالذهول كأي شخص آخر حينما يواجه إعصارا مريرا، حينما أغمضت عيناي لا أعرف هل كان حلما أم حقيقة؟، إذ بصوت أخي مذعور يناديني أمام الباب، تظاهرت بالنوم و أمعنت في تجاهل صوته، صار صوته خافتا أكثر، بدأت دقات قلبي تتسارع ، أشفقت عليه وقلت في نفسي مالذي يجب فعله ماذا أفعل؟، أحقا هذا صوت أخي أم تراها تلك المخلوقات؟، لكن مقاومتي تنهار لذلك الاختناق الذي أفقدني توازني لقد ضيّعت أخي في تلك العتمة، بصراحة لا أريد الاقتراب ولا الاستجابة له، طلب مني المجيئ بصوت هادئ، كان يقترب مني شيئا فشيئا، كان صوته مخنوق لا أسمعه بوضوح، متقطع وصوت أنفاسه تشعرني بالضيق في صدري أشعر بهذه الأصوات تهز قلبي من ذلك الخوف، أنفاسي تعلو شيئا فشيئا، أحاول التنفس بصعوبة أود الهروب لم أستطع. كلما حاولت جاهدة أن

أذهب باتجاهه هناك شيئ ما يشدني بقوّة ويرجعني إليه ويمنعني من التقدم ويخنقني أكاد لا أستطيع التنفس، كأنني في قاع جسر أحاول التعلق بأمده. أحاول الامساك بأي شيئ كي لا أسقط ورحت أصرخ ملء رئتاي باسمه أبحث عنه في ظلمة عيناي وظلمة الليل وظلمة القهر، لماذا أنت هناك وخيّل لي أنه من بين الجثث الهامدة، كأنها تأخذ به؟! رأسي يؤلمني عاودني ذلك الإحساس الرهيب، أشعر بضيق في صدري و قلبي يدق بشدة يارب ماذا أفعل؟. ارتجفت رجلاي وإذ بي أحس بالبرد ينفذ في كل أعضائي و انكسر ذلك الصمت المتوتر الرهيب بسلسلة رهيبة من المخاوف، استيقظت مفزوعة في منتصف الليل و أنا أشعر بإنهاك شديد في كل جسدي، يحثني للنهوض من ذلك السرير لتنفس بعض الهواء، وجدت نفسي جالسة ومكوّمة بجانب تلك النافذة، قلبي يدق بسرعة ألهث وأحاول أن أمحو تلك الأصوات من ذاكرتني أشعرتني بفوضى عارمة تهجم عليّ، بدأت أشك في أن هذا المكان إما أنه أصبح ينفرني لغياب أمي وإما أنه يرحب بي بطريقته الخاصة كما رحبت بي الأشياء

الأخرى معاكسة لرغباتي، خطوت خطوة من سريري، ثم بدأت تتعالى إليّ تلك الصرخات مرة أخرى، عدت إلى الوراء واختبأت وتململت في فراشي. أعضائي كانت متعبة ومشلولة من تلك المخاوف، أغلقت الأبواب جيدا بالرغم أنني كنت بعيدة عن تلك النافذة إلّا أن تلك الصرخات كانت تصلني حتى فراشي، وبدأت أبحث عن وسادتي التي أعانقها و جسدي يحاول أن يختبئ داخل جلدي، و أتكوّم في فراشي مذهولة أتذكر ذلك الحلم وأرتجف، أخفيت وجهي بين يداي و أنا أشعر أن هذه الأزمة تنسج خيوطا جديدة ورعبا آخر، أمسح عيناي لم أستطع الصبر حتى طلوع النهار، أدور في البيت ورحت أفكر في أولئك العزل مثلي، الذين يتعذبون والموت يتهددهم ويقعون تحت تقبل الو اقع بصمت عاجز، بات الخوف مثل مطرقة الباب يضرب كل ذكرى صغيرة أحتفظ بها لكي يوطد مكانا أكثر مما كان عليه في نفسيّتي وصرت مهيأة لترصد أدنى عبارة تجعلني ممزقة إلى قطع متفرقة، لا أستطيع أن أجد تبريرا لهذا الخوف لمجرد أنّني لا أريد ان أموت وحيدة أشعر بجدران غرفتي بدأت

تضيق. بقيت في غرفتي أدور و أبكي كما يدور حيوان سقط في فخ مميت، أئن وأسمع صوتي يمتزج مع نداء تلك التخيّلات، كلنا في هذا الفخ، نفس الأصوات تعم غرفتي، أنصت بذهول في ظلامي. في هذه الدنيا يموت الناس مرة واحدة أما أنا فمت ألف مرة، كل مرة أسمع فيها صوت صرخة، أموت كل مرة أسمع صوت أحدهم فقد شخص عزيز عليه، ليتني أستطيع أن أجعل من هذه الكلمات مجموعة من الدنانير كل كلمة بدينارأجمعها وأعطيها لأمي. مالفائدة ما دمت لا أستطيع إنقاذ أمي؟، كما أنّني لا أستطيع التغلب على هذه المعركة. لماذا لا أموت و أنتهي من هذا العذاب؟. خطوة واحدة للشارع ويصيبني ما يصيب هؤلاء المساكين إنّها أيام مناسبة للموت، وأموت موتا مجانيا مضمونا بكل بساطة، لكن المهم في موتي هو ما يجعل العالم أكثر إنسانية أما في هذه اللحظة موتي سيجعل الشارع أكثر عفونة، وهذا كل ما في الأمر، سأموت كخروف وليس كإنسان. الموت بدون جدوى يجعل الإنسان مجرد ضحيّة غبيّة لا أكثر ولا أريد أن أموت

هكذا، اختيار الخروج من أجل الموت ليس تضحية لكنه بمثابة الهروب، إنّه بسبب الخوف وهل كل موت حل؟، المهم أن يموت الإنسان ميتة لها معنى والأهم من ذلك أن يحيا حياة لها معنى. الذي يموت صدفة يصبح قتيلا أو مذبوحا كأي خروف وليس شهيدا. موت الإنسان لكي يصير العالم أكثر إنسانية هو الذي يميّز بين القتل أو الجهاد وبين الضحية أو الشهيد، كم هو موجع أن تشعر أن حياتك تهرب منك بغتة. العجز يدفعني إلى استشفاف حياتي كلها وتلك الحالة أقسى بكثير من استوعاب عقلي لما يحدث، إنه مؤلم حقا أن نعمة الأكسجين التي نحظى بها من عند الله لسنوات كثيرة عرفنا قيمتها في تلك الفترة العصيبة، حتى وجدت نفسي أفكر في جسدي الهش كيف يمكن أن يتحمل خرقات الإبر، أأسفت على قوّة مقاومتي لكل هذا. إذا حقا تركتني أمي، صار كل شي أسوّد في حياتي الآن بت و اقفة بين الخط الفاصل بين الموت والحياة أشعر بحواسي النائمة تستيقظ وتخرج إلى سطح الوعي كغواصة ينشق بها البحر فجأة. ما هذه الموجة إنّها موجة الخوف

مجددا سوف تأخذني إلى حيث لا أدري، ليتني أنام قليلا وأكف عن التفكير بهذه الطريقة إنّها تجعلني أكثر توترا، كما لو أنّني أمشي بخطى ولا أدري إلى أين أتجه ففي كل عثرة أحس أنّني سقطت في بئر موحش لا مخرج منه. ما أطول هذه الأيام حينما تكون المسافة بين الموت والحياة ليال من الانتظار لأن هذه الأحاسيس تجرني إلى حيث لا أدري، لا أملك سوى الاستسلام إلى مواجهته المروعة، لقد أحرقت سنوات من عمري من لهيب ذلك الانتظار وأنا أرسمه في مخيّلتي، لأبحث عن سعادة داخل حلم معقد اسمه النور.

******

طلع النهار، يبدو أنه سيكون أكثر كآبة من الأمس، خصوصا ذلك العويل الذي لا يهدأ أبدا، ما يزال هو أوّل من يطرق مسامعي حتى الآن، يمر ذلك الصوت مباشرة إلى مخي، ويستقر هناك. اليوم هو الثالث أو الرابع لا أدرى، كل ما أعرفه أن كل يوم يمر مثل الذي يسبقه. لا حل لهذه المعضلة، لا تنفس، نفاد قارورات الأوكسيجين، اختناق.. أمشي بنفس الخطوات المبعثرة، أتحسس الجدار، أجاهد للوصول إلى غرفة خالي، أسمع خطوات مشي الحمد لله لم يخرج بعد، أحسست بقليل من الأنس، لكن لماذا لم يخرج بعد؟. واصلت خطواتي أتحسس كل شيئ أمر به، وجدني خالي على تلك الحال

_ صباح الخير خالي

رد متعجبا لما رآني أمشي لوحدي

_صباخ الخير عزيزتي، أول يوم أشعر بسعادة من أوّل صباح أعجبتني قوتك.

وراح يشجعني لكي أواصل أكثر، قلت في نفسي عن أي قوّة يتكلم وأنا أبيت الليل بأكمله أناجي الموت حتى يخلصني من هذا العذاب.

رددت عليه بابتسامة ككل مرة، والحق أني أصبحت أكثر تبسما مما كنت عليه، فالابتسامة تعريف آخر للحزن.. بل أقسى من ملامح الأسى، فالضد دائما تعريف للوجه الآخر للشيء. سألته هل يمكنني الذهاب معه إلى المستشفى، رد عليّ قائلا أنه يحاول الاتصال بأخي لكي يذهب رفقته ويعرف كل جديد بخصوص أمي.

لا يزال الوقت يجري حثيث الخطى حتى أنّني أشعر بنوبة ذعر والبقية التي تنظر بالمنظار المكبر لم يسع لهم سوى إبداء الأسف على تلك الحالة و التنويه لشد الحيل أكثر فأكثر، صبر.. صبر.. صبر كنا نعد الدقائق بالساعات، ننتظر بفارغ الصبر. فقد مضت أسابيع وما زلت القنوات تتحدث عن حالتنا المزرية من البؤس والحزن والفراق. أي أقدار تعيسة أعيشها أتعس من

هذه التي أعيشها منذ ظهور هذه اللعنة، أين هي الحقيقة ومن يسيّرها والوعود تبقى مأجلة دائما. يحرقني هذا الانتظار، أصبح قلبي مطاطي معلق في الفراغ يزداد ثقلا و انحدارا نحو الأسفل، مع كل لحظة ترقب كنت كتلة من اليأس، مثل وحيد في جزيرة وقد خلفته آخر سفينة نجاة، والليل مظلم موحش لا كلمات أبدا و أنا مذعورة ووحيدة ومهجورة، عاجزة عن الصراخ، كان فمي مليئا بكلمات العتاب والضياع، وعيناي بدمع الخذلان وقهر الظلام، أريد أن أبكي، أصبحت لا أطيق أي شيئ من هذا القبيل، ربما لأنّني كبرت بسرعة وصرت يائسة بعد أن احترقت مراحل عديدة من حياتي، لم يعد لدي نفس الحماس تجاه الحياة وتجاه آمالي التي كنت أرسمها في الأحلام، هناك حزن نزل عليّ فأنهكني وكتم على راحتي وسلب مني كل تفكيري، فأنا لا أجيد الصبر ولا أعرف كيف أتعامل مع هذه الأحاسيس. يجب أن تعود أمي ليست أمي فقط، بل كل فرد يعود إلى أهله. هل من العدل أن نعيش كل هذا فقط لأنّنا فقراء؟. أشعر بوحدة لا حدود لها

تغمرني، و عتاب كبير، أود أن ألقي به ولا أدري لمن بالضبط، بت الآن لا أحلم إلّا بما يجري معنا لم أكن أعرف ما الذي أفعله، طوال الوقت أمشي في البيت كالمعذب في قبره، أمشي ولا أدري إلى أين ولا كيف أتغلب على توتري، مالذي يجدر بي فعله من يدرك ماهو إحساسك عندما تمشي وعيناك يملأهما ظلام موحش في كل خطوة تخطوها تنتظر أن تجد نفسك منطرحا لا تعرف حتى كيف تتخيّل نوع الإصابة إلّا من حدة ألمها. نحن محاطين بعجز لا حدود له، أنا سجينة غرفة لا مرئية اسمها الخوف شفافة الجدران أبصر عبرها صورا كثيرة عنوان لهذا الو اقع الفقير، حتى طعم البساطة الذي كنا نحظى به لم يعد له أي وجود صار لنا طعم الذل والحرمان، لنا قيود غير مرئية، من أبشع أنواع المآسي، ووعيت إلى حقيقة مروعة تزيد من إدراكي أن الظلم موجود في كل مكان، صاركل من لم يحظى بدينار دبر له موت مهذبة ونظم له جنازة من أبشع الجنازات، الغنى زائد القدرة يساوي حياة كريمة، فقر زائد عجز يساوي ذل و يأس، لا يمكنكم أن تفهموا شيئا لأن كل

هذا حدث في مسرح فقر مع الفقراء وسيستمر مع الفقراء ونهايته ستكون مقاومة حتى الموت.

******

لم نكن نرغب في استمرار هذا الوضع المزري والفضيع، الصبر لم يعد يجدي نفعا، هلاك كل هؤلاء الأبرياء أفقدنا توازننا وقوامنا، ما معنى بقاءنا كالجرذان سجينة في حجورها والكثير يموت بالصدفة لمجرد أننا لا نملك مالا لإنقاذ أنفسنا من هذا كله. فكرنا مليا وبعد أيام من تلك المعضلة أدرك الكثير ان الذهاب إلى البحث عن يد العون هو الحل الوحيد، لأنه القرار الوحيد الذي يغير مجرى حياة الكثير، كثير من أصحاب القلوب الرحيمة يقف على هذه المحطة التي أعادت لنا الحياة من جديد، كان الجميع يتحرق شوقا لخوض تجربة معتبرة آنذاك، و التضحيّة سيدة الموقف، لولا هذه المجازفة والذهاب من أجل جلب الأوكسجين لاختلط الحابل بالنابل، أحسست بنعمة لا مثيل لها لأن تطور هذا الحرمان لم يعد سرا على أحد. شكرا لأهلنا كانوا يفعلون كل ما بوسعهم لتهدئة مخاوفنا، لوضع حد لعجزنا حيث أنهم كانوا و اقفون مستعدون لأي

تضحيّة، قلت هذا بعد أن ابتل اجهي بالدموع تاثرت كثيرا وبدأت أتجول بين الغرف هائمة لا أعلم ماذا أفعل وإلى أي وجهة أتوجه ماذا بوسعي أن أفعل الآن كل شيئ يمنعني من أداء أي شيئ. كم مر من الوقت؟. يوم.. يومان.. بدأت أرقام الأمل بالارتفاع كعداد الأرقام الدوارة في مضخة تعبئة البنزين ستة وثلاثون، سبعة وثلاثون، ثمانية وثلاثون، تسعة وثلاثون.. إلى كم يوم آخر ترى الساعة على الجدار، الساعة في رأسي، الساعة في قلبي، الساعة في أذناي كلها تدقّ في وقت واحد، وبغتة، يجتاحني إحساس غريب وكأن كل تلك الساعات قد أعدت لتقف كلها في لحظة ما، متى يأتي هذا اليوم الموعود، أبقى على ذلك الحال حتى أجد نفسي غرقت في نوم مملوء بالكوابيس، استيقظت متعبة أكثر مما لو بقيت صاحية طوال الليل أحفر قبور. آه أرق أرق نبت داخل رأسي، وتسلق جدران روحي كنبات أسطوري شرير ينهار كل شيئ داخلي، لم أعد أفكر الآن في نفسي كما كنت، أنا فقط أفكر كيف أنتهي من هذا العذاب؟. لقد غمرت أنفي رائحة الياسمين، كأن أحدهم حمل

معطف أمي؟، أعلم أنّني لست أنا فقط من يشتاق لها، رحت أتحسس معطفها البالي وأعانقه بكل دموع العتاب و ألفه بوجهي لأسد أذناي من تلك الأصوات. أمشي بخطوات إلى النافذة، عليّ أن أفعل ما بوسعي لكي لا أنهار لدي الكثير لأصمد من أجله وفي غمرة يأسي كنت أسمع صوتا خفيا يقول لي: كل شيئ سيزول كل حزن سينتهي. مر ثمان وأربعون ساعة، حصل شيئ غير طبيعي!، كأنه اليوم الموعود، بدأت الأشياء تتفاعل تدريجيا وتبشر بشيء من الخير، ليس هناك أصوات ولا استغاثات، شيئ جميل ! ترى لماذا؟، هل أنا في حلم؟، لا لست واهمة، بصوت متأثر الحمد لله لقد نجح الأمر، إنّه انتصار عظيم. لا أدري بعدها كيف تابعت المشي و أنا أبكي والدموع تغطي وجهي كان موقفا رهيبا أنار حلكة الفقراء وقلت في نفسي بانكسار ترى هل أدركوا كم السعادة التي غمرت قلوبنا بفضلهم؟ يا إلهي ما أجملها من لحظة وما أرهبها وأخيرا كل واحد سوف يلتقي بمن يحب لأنّه كان موقفا فظيعا تقشعر له الأبدان. لا أنكر

أنّني بقدر إعجابي بما فعلوا شعرت في داخلي بألم عظيم ووتوتر شديد.

غيرت ملابسي بسرعة ورحت أتحسس خطواتي إلى غرفة خالي فتحت الباب بعنف وعجلة زفرت في ضيق.. حاولت فتحه فلم أستطع كانت. كان تفكيري مشتت متوترة إلى أقصى حد ويخطر ببالي أشياء كثيرة أنادي خالي وصدى صوتي يرد إليّ بقوة، خرجت ونزلت الدرج لأقابل "خالي" وهو صاعد إلى غرفته.

كانت أطول مسافة قطعتها آنذاك أحسست برهبة لا مثيل لها، كم تمنيت لو كان بإمكاني أن أطير لأصل في أقصر وقت.

خالي هل وصلنا..؟؟

- لم يبق سوى خطوات لباب المستشفى

وعاد نفس الصمت لم يصدر أي صوت سوى سماع صوت أنفاسنا وهي تصدر صوت الإجهاد وخطوات مشي تجاهد للوصول إلى المكان المقصود، قلت الحركة في ذلك الشارع الواسع وسادت حالة ذهول غريبة تشبه

إغفاءة الموت المخدر، وبدأت أتخيل رائحتها العفنة، لولا أصوات سيارات الإسعاف التي كانت تبحث عن مسالكها الصعبة، لا تقطعها إلّا الأصوات الحادة الجافة التي تشبه نداءات الاستغاثة تأتي من بعيد وبعضها خافت وبعضها الآخر كان كأنه يأتي من عمق الدماغ. لقد هدأ المستشفى قليلا على الرغم أن صوت سيارات الإسعاف لم يتوقف أبدا يصم الآذان ليستقر في الأخير في عمق الرأس قبل أن ينسحب في آخر الليل عميقا مبتعدا عن المكان شيئا فشيئا مخلفا وراءه صمتا عابرا سرعان ما تملؤه سيارات إسعاف أخرى تأتي من جهة مقابلة متوجهة نحو مستشفى آخر سالكة ممرات ضيقة، لم أستطع المقاومة أكثر.. خالي لم يلاحظ عليّ ذلك لقد كان يمسك بيدي بقوّة ولم يقلل من خطو اته منذ مغادرتنا المنزل، بصوت متوتر..

- خالي أنت تسرع كثيرا

أكمل خطو اته المسرعة دون أي استجابة، كان في عجلة من أمره، صمت مطبق.....بصوت متوتر مرة أخرى

-خالي..

- خالي: آسف يا أميرتي، هاه سوف ندخل المستشفى أعلم أنك تعبتي لكنك أنت من أصر على المجيئ.

******

ساعة كاملة منذ وقت الانطلاق تليها ربع ساعة عند عبور ممرات المستشفى الضيّقة ثم ثلاثة أرباع الساعة للوصول إلى الغرفة المقصودة، لقد فقدت إحساسي بالزمن أو لعل كل الأوقات في حياتي لا أمي فيها. أعبر أروقة المشفى ركضا فلا أسمع سوى وقع الخطوات، اقتحمنا القسم وهرولنا في اتجاه غرفة أمي، أخيرا.. كنت ألهث حقا، الممرضة تستعجل بطلب الطبيب، توقف خالي بغتة بفرامل خفية أمسكني ثم خطى خطوتين للوراء كأنه يحاول إبعادي أكثر عن الغرفة وهو يتمتم، لم أفهم ما الذي يحدث نزعت يده عني ببرودة وتقدمت إلى باب الغرفة أكثر، حاولت الممرضة إبعادي أيضا فلم تصدر مني أي استجابة، تقدمت بثلاث خطوات لا أكثر، ثم توقفت، ما الذي يحدث ؟، كأنني أسمع نبرة صوته المتسللة للقدر المفعمة باليأس والحزن، أو صوت أنفاس شخص شعر كأنه يختنق وشعر بشيء يقف في حلقه يكاد يكتم أنفاسه. حتى اليوم مزال طيف تلك الأحاسيس يحتل مكانا في ذكراتي

الأليمة لقد انطبعت في ذهني إلى الأبد. كما أن العبرات لمعت في مقلتاي كأنها تكاد تفيض من بينها، وسمعت صوتها يهتف بعد قليل متضرعا، دفع خالي الباب بعنف ولم يتفوه بكلمة، فجأة صمت كل شيئ، ولأوّل مرة فهمت ربما يقال صمت المقابر، إنّه صمت عدواني خطير، لا يشبه صمت القرى الوادعة ولا يشبه صمت باحات لعب الأطفال في المدارس الداخلية عند رحيلهم للنوم. حقا شعرت بالخوف، خوف من نوع آخر، خوف رهيب وشرس انفجرت ضاحكة، أخافني صوتي آنذاك! أتراها بداية الجنون؟! انسابت الدموع من عيناي، أعلم أن الكل يرمقني بنظرات الشفقة والأسى، لم تتوقف دموعي لحظة واحدة وأنا أقف أمام السرير وأنتظر صوتا من أمي. ثمة صوت سيارة إسعاف، سيارة إسعاف!، إنّه صوت الفراق صوت فراق الروح للجسد، صوت فراق إنسان لذاته، صوتها يعلو ويخفت.. يخيّل لي أنها تحوم حولي، عاجزة عن الاقتراب وتتابع نواحها، لا أدري لماذا تذكرت صوت الزغاريد في الأعراس، وما أكثر الأعراس التي تطلق فيها الزغاريد المزيّفة. كأن الزغاريد

تخفي دموع الرفض السرية، صوت الزغردة وصوت الإسعاف صوتان أكرههما. الأصوات التي أكرهها تذكرني بصوت الألم والحرمان والفقر، رحت أمشي بخطوات مبعثرة وامتلأت عيناي بالدموع والكل يهمس في أذناي صبرا جميلا.. كان الله في عونك.. مسكينة.. ضحكت مجددا.

وها أنا أشهد اللحظة المريعة التي طالما كانت تطاردني في كل خطواتي، أنا الآن مطاردة من كل أحاسيسي، أنا الآن أرتجف لشدة ما في قلبي من غيض. بدا لي العالم بأسره تابوتا ينغلق، كان عالما ميتا وخاويا في جسد متصلب، أما قلبي فتحولت دقاته لألم.. ألم مروع يدوي كالانفجار، ما أبطأ لحظات الحزن حينما تتحول إلى واقع ملموس، كيف أستطيع استوعاب أنّني لوحدي ولا أجد من يواسيني، أنا الآن في خيام كل الذين أحبهم الذين كان يمزقهم المرض والحمى، كيف سأصدق أنّني أستطيع أن أعيش بقيّة أيامي كصدفة قذفت بي الأمواج، متجاهلة كل أحلامي ومن كان رفقتي طول ظلمتي، مرام أيّتها الكفيفة اليتيمة كيف صدقتي أنك

سوف تكملين بقية أيامك في هذه القيامة، بينما أحبابك بأكملهم تابعوا دورهم المحتوم في المرض والصراع الشريف من أجل البقاء، رغم أنّه لن يكون ببقاء مريح، لا أستطيع أن أصدق أنني لو تسلقت درجات السلم إلى بيتي الآن لا أجد من يمسك بي ويأخذني إلى غرفتي التعيسة، من يوقظني صباحا، و من يحضرلي الفطور، من أقبل رأسها الشريف وأذهب معها إلى مركز التحاليل لجلب نتائج الفحوصات، من أشتم حناءها في يدها عندما أقبلها، من أسمع صراخها وهمسها ولمسها وتضرعها لله من أجل أن يحفظنا.. أين هو ملجأي إذن؟، إلى من أعود؟ و أين سيكون طريقي الصحيح في متاهة الانتماء واللا انتماء؟ وإلى متى سأبقى هنا أعيش ولا أعيش بدون هويّة؟. غمرتني من جديد غصة عميقة لقد احترقت مشاعري شعرت و الدموع تنحدر على وجهي وفكرت أن دموعي الآن سوداء كلون هذا الظلام الذي يتضاعف في عيناي بلا رحمة، بكيت.. بكيت، نحبت وصرخت، ترجوت الله أن يكون هذا محض كابوس مزعج وسأستيقظ منه صباحا لأجدني في

حضن أمي.. بقيت لوحدي، شعرت بحزن عميق يطير بي، شعرت أنّني أخطو فوق كوكب زجاجي ولا أتقن المشي فوقه، إنّها حياتي الجديدة دون أي أحد. إذن لم أعد أمتلك شيئا، لم يعد هناك شيء يستحق العيش لأجله ولا بمحاولة الامساك به، أشق الطريق بين الناس وأصرخ مثل المجنونة تماما كانت تصدر مني صرخات مثل الصاخة اهتزت جدران المشفى من حدتها. كنت أعوي مثل الذئبة التي فقدت ولدها في ليلة مظلمة وقمرها أصفر، وظللت أصرخ حتى تعبت وخارت قواي، جفت دموعي وما نقص الألم مثقال حبة خردل.. بدأت أفقد وعيي شيئا فشيئا حتى أغمي عليّ بعد نوبة البكاء العنيف. أنا واحدة من قافلة العميان تقول لي مخيّلتي احزري أين أنت؟. تهاجمني أمواج رهيبة من الأحزان فأصرخ في بحرها، ثم أقول لا ليس تماما ألمس جدار صلدا أملس فأصرخ أنا في قاع بئر لا ليس تماما أتحسس الجدار فأجد صخورا شاهقة بلا نهاية. أنا على شاطئ نهر طويل أبكي، ليس تماما، أشعر أني محبوسة في عنق زجاجة، مجرد دائرة أسبح حولها دون أن أدري أين

الوجهة، استعدت وعيي ببطء شديد وفتحت عيناي بوهن ثم عاودني ذلك الموقف مثل قطار يتحرك ببطيء شديد اعتدلت فزعة من فراشي، انتفضت لاهثة صارخة جالسة فوق سرير تملأه رائحة الأدوية تتسابق حبات العرق فوق جبيني شعرت كأنّني أختنق، تحسست بيدي الجدران لعلي أجد فتحة ما أتنفس منها بعد أن حقنتني الممرضة في الوريد ثم أسرعت إليّ بشربة ماء و عدت لأدخل مجددا في صراع بين أن أتقبل الحقيقة وبين أن أقاوم ألم الحرمان. كان كل شيء قد انتهى أو يكاد ينتهي، ألم يكن باستطاعتهم أن يكونوا أكثر فطنة؟ أنا أريد أن أخرج من هذا الو اقع لا يهم إلى أين المهم غير هذا الوطن البائس لا أريد أن أنتظر، لا أريد أن أكافح أريد أن أموت بسلام. سأهرب بعيدا لا أريد العيش هنا، كان من الممكن أن نضع حدا لهذه المعضلة في لمح البصر.. لم يمنحونا هذا الحلم وآخرون منحونا إياه كهدية لتعزيتنا بطريقة غير مباشرة، لا يمكن لبشر أن يقاوم أمرا كهذا، لأن هذه الفاجعة وضعت هذا الهم على أبواب حياة البؤساء و انسحبت حافية عارية لكي لا

نشك أنّنا نحن المقصودين وليسنا كغيرنا من البشر، و لا مرة فهمت أن الظلام الذي بعينيَ كان أرحم من الظلام الذي كان ينتظرني لم أعد أفكر الآن في بصري كما كنت أنا أفكر فقط كيف أقاوم مصيري دون أمي. الذي نعيشه جريمة بعينها ليس هناك طرف محايد، لا أحد بريء في مجتمع عديم المسؤولية، السكوت عن الظلم بحد ذاته تشجيع لاستمرار البؤس وهو بالتالي مشاركة لا مباشرة في ارتكاب الجرم، المحايدون يشجعون الموت بسكوتهم فهم لا ينطقون حتى تمس مصالحهم مباشرة وهذا السكوت هو نوع من التواطؤ الضميري.

******

جرت مراسم الجنازة في منتهى البساطة والتواضع في مدفن صغير، لم يستطع أيّ منا أن يرى وجهها حتى، من أجل الحماية من انتشار الفيروس، لم أتجرأ على زيارة قبرها لأنّني لم أستطع تقبل الحقيقة. حتى اليوم مازال طيف تلك الحادثة الأليمة يحتل مكانا في ذكرياتي المخيفة المرعبة، لقد انطبعت في ذهني تلك الصرخات التي كنت أبوح بها لحظة أستوعب أن هذه جنازة أمي. صار الآن الرعب يسكن قلبي ولا يغادرني، في تلك اللحظات الخاوية التي تعيد في شكل أمواج إلى ذاكرتني صور ذلك الخبر المريع الذي بات يطرق مخي في كل دقيقة، أشعر بصمت في داخلي، صمت طويل أريد أن أستفيق منه أحاول دائما الخروج من هذه الدائرة المرعبة ومن هذا الظلام الدامس، ويا ليتها كانت النهاية لكانت أرحم بكثير مما كان ينتظرني من جحيم، لقد كانت البداية التي أطلقت عنان الأحزان نحوي دون رحمة ولا شفقة. أدرك خالي أنّني بدأت أتعب من فر اقها الذي يكبرني ألما، و أنا لم أعرف التعبير عنه سوى بكتم تلك

الشهقات التي تكاد تقتلني بأضعاف حتى أنا أردت الذهاب من ذلك الزقاق، كل شيء فيه يدفعني نحو الألم وأنا بدأت أشعر بالضعف أصبحت لا أطيق البقاء هناك، لقد صار لكل شيء رائحة عفنة بالفعل، اصطحبني خالي إلى بيتنا وهو يعلم أنّني لن أستطيع التحمل أكثر، بالرغم من كوني أكتم كل ما بداخلي، لم أتعود على البوح بكل آلامي حتى تعودت على أحزاني وتعودت هي عليّ فلم تعد تفارقني ولو للحظة، إذن أنا وحيدة، أقف بمفردي على الرصيف وفوق كتفي حقيبة صغيرة، وحيدة كما كنت أخشى دائما، والكرة الأرضية صفر، لم تتبق سوى عتمتي التي تنيرني ظلمة، باطني أشد سوادا من عتمة الليل، فرهبة الليل تضاء في كل الأحوال بمصابيح، أما أنا فماذا يضيؤني؟ ومن يضيؤني؟ يمكن أن أقترح "المشاعر"، لكن لسوء الحظ، انخفض تركيز عواطفي على نفسي وعلى هذا العالم بأكمله، ليلة أقل خطرا من سهدي القابع في بواطن الصدر، والذي يراقب دون سنة تفاعل مكونات الدنيا بعضها مع بعض دون أن يحرك وترا، أقف على الصفر

من جديد، بانتظار أناس كثيرة وكل ما حولي كأنه يشاركني همومي. كأن الشمس لا تشرق والرياح لا تهب والسماء لم تعد تمطر. وهم ينتظرون سماع حكايتي ولعلهم جهزوا لي علبة مناديل لمسح دموعي، أنا جائعة وأشعر بالنعاس، أريد أن أرتاح، متلهفة للأكل، جائعة للنوم، بحاجة للراحة، ولكن ليس لدي حكاية لأرويها. ما زلت أقف ولم اخطو خطوة بعد، أحس بأنّي وحيدة مسكينة، لا تتوقعوا مني أن أكتب بداية سعيدة بعد كل الذي حدث، أو مثل كل القصص و أنّني سوف أنهض وأحارب من جديد، بما أن الكثير سمع بقصي أود أن تكون كما هي، ما زلت أقف على الصفر من جديد، الكرة الأرضية إشارة استفهام و أنا نقطتها على صفرها، أعتلي ميزانا فيدل مؤشره على نقطة الصفر لقد احترق كل شيء فيا و أنا في نقطة انعدام الوزن، ليس هناك أصعب من أن تسقى من خيبة حلم لطالما تخيّلته محققا، لم يعد لحياتي داع من الآن، لم يبق مكان في قلبي للأمنيات، لمت نفسي كثيرا ثم لمت كل من كان هناك لأن ما فعله الجميع كان بمثابة إعطاء قطرتين من الماء

للظمآن وسط الصحراء. لم أتمالك نفسي ورحت أشهق بالبكاء، حاولت الرجوع إلى الوراء لكن حين تذكرت كل شيء ابتسمت ابتسامة فاترة و أكملت خطو اتي. اجتزنا ممرا طويلا وقد و اكب سيرنا صمت مطبق، كان ثقيلا، وخيّل لي أن هذا المكان الذي احتللته ما هو إلّا مقبرة لأحلامي. فكنت على يقين تام أنّني لن أتعود على تقبل هذا المصير المأساوي وداهمتني موجة من الذكريات، الأيام التي صارت من الماضي وإرجاع عقارب الساعة من ضرب المستحيل، وفي نهايته ينظرنا كل من يعرف أمي فقد علق قلبهم بالأسى عليها ولعله وراء هذا الخبر الحزين كانوا يعاملونني بحب وتقدير مبالغ فيهما ويشبعون أتفه رغباتي، ولكنّني لم أكن أرغب في أي شيء لا سيما أنها كانت أيامي الأولى التي عشت فيها أقسى أنواع الألم، ولطالما كانت تجتمع في أمي صفتان حميدتان من احترام ولطف، فبأخلاقها وكرمها وطيبة قلبها استطاعت أن تترك مكانة خاصة في قلوبهم. وبينما أنا منصرفة عن هواجسي و أفكاري لا تسول لي نفسي التقدم ولا تدفعني للرجوع عالقة بين الألم والأمل،

اقتربت من خالى بحذر شديد وكأنّي أخاف السقوط رفعت رأسي قليلا، لم أكن بحاجة للحديث بل لم يكن لدي رغبة حتى في رفع رأسي ضمني بحرقة وهو يذرف دموع الأسى والتحسر ثم صعدت عيناي للأعلى وهما تنطقان بالألم والضياع، رؤيته لي بتلك الحالة حطمت قلبه وأسالت دموعه فهو يعلم جيدا أني محتاجة للعناق إلى حضن دافئ أرتمي فيه لأبث أحزاني، ثم أقول له بصوت حزين ثم أتلعثم والدمع يملأ عيناي ويداي ترتجفان، ثم سكت وددت لو استطعت أن أقول له لم أعد أقوى على هذا الألم، وددت لو استطعت القول بأنّي تائهة ضائعة. أثارت تلك الحالة التي كنت عليها عطفه وهزت مشاعره فلم تعد لديّ القدرة على الكتمان.. بعد خطوات قليلة وصلنا إلى البيت وصعدت السلالم واحدة بواحدة لكي أرتاح. محطمة العزيمة مبعثرة المشاعر أفتقر إلى القوة والإرادة، بالرغم من أن عودتي إلى البيت موجعة إلّا أنّني رجعت، ووجدت نفسي مخيّرة بين بيتنا وذلك الحرمان، إلّا أنّني وجدت نفسي محطمة بين الاثنين ما إن هربت إلى مكان فررت من

الآخر. أمطرت عيناي زخات متوالية من الدمع الغزير و أنا أحتضن أحزاني. زفرت بضيق و أنا أتمتم بكلمات ساخطة أحرجتني، كل مقاوماتي كانت مجرد محاولة يائسة ضد الألم، أحتاج أن أبكي كثيرا لعلي أشفى ولو قليلا، أنا في أمس الحاجة لكي أسلم من معركة الليلة التي سأقضيها لأوّل مرة في بيتنا وأمي لا وجود لها في هذه الحياة، معركة البكاء والكتمان المعركة الافتتاحية لأشياء جديدة لا يدركها أي شخص في هذه الحياة.. تقدمت إلى السرير كمحارب عاد من معركة كان فيها هو الناجي الوحيد، جريحا ومنتصرا بخيبة أمل، واستقبلته أرضه بحرارة وتصفيق لم يرض بتركه حياته هناك، ثم وقفت مترددة في منتصف الطريق قد آلمني ما شعرت به في تلك اللحظة أن أكون مجبرة على تقبل ذلك الغياب، آلمني أن أستبدل فرحة كنت أنتظرها بفقدان مفاجئ و أنه سيتسبب لي بكثير من الألم والعذاب لحياتي، تحجرت العبرات في عيناي، أريد أن أتكلم أريد أن أصرخ، أكملت طريقي إلى سريرها وقفت قليلا لألتقط أنفاسي، سرت قشعريرة باردة في جسمي ثم أرسلت تنهيدة حارة.

أمسكت شالها هذا ما تبقى من أغراض أمي الذي يتوافق مع روحها المهمشة وطبيعتها البسيطة التى لاتميل إلى تكلف أو تصنع، ضممته بقوة إلى صدري ودفنت وجهي فيه كما كنت أفعل دائما معها، أستنشق آخر ما تبقى من رائحتها العالقة به، أصبح المكان أكثر وحشة مما كان عليه. أنا أنهار من الداخل وبقيت روحا لا تشعر ولا تحس، تظل رغم الألم تبتسم للجميع، من يفهم كيف هذا الشعور، جعلت أتقلب في مضجعي هاجسة بما يعتمل صدري تجتاحني موجة عارمة من الحزن، ليس لدي صديقة أستأمنها أسراري ولا أخت أمنحها ثقتي.

******

بعد مرور خمسة أشهر...

كانت لدي قناعة راسخة أن كل شيء لديه نهاية في حياة الإنسان بما في ذلك الحرمان والألم، لكن كل يوم يمضي أدرك أنّني مخطئة، أجد نفسي في بئر مظلم لا نهاية له، فعندما يعصف بي ذلك الاكتئاب يقبض على روحي المهمشة دون أن يحميني أحد. تعثرت كثيرا في محاولة عبوره وسقطت مرارا ولم أقف بعد. أنا حزينة جدا لدرجة الانكسار، كل شيء أصبح فيّ معطلا تماما، بدى لي العالم مكانا موحشا و أبدّي الحزن.. لم يعد هناك ما يُرضيني، لم يعد هناك ما أعرفه، ليست لدي الرغبة باعتبار نفسي على قيد الحياة، صارت أقل الأشياء تحزنني وتؤذيني، وبكائي يخيفني ووحدتي كل يوم تمتص جزءا من شخصيّتي، لم يعد لحياتي داع من الآن، لم يبق مكان في قلبي لكي أتمنى أمنية حتى و أنّني غدوت منطويّة على نفسي كثيرا بدلا من أني على قيد الحياة، وما الفائدة أن أكون على قيد الحياة وأمي ليست معي،

فقد صرت مثل شجرة مفرغة من الداخل أشعر بكل شيء ينطفئ داخلي و أنا أعيش زمن الوحدة هذه وهي سيدته. الفقر والعجز هو المنتصر الوحيد، إنّه تعود أليم لاسيما أنّني أفتقد الأمان الذي حظيت به، إنّها قيامة في حياتي، أنا ممتلئة بكل شيء، لا أعرف حقيقة بماذا أشعر الآن وكيف أشعر لكنني أعرف بأني بلغت غاية اليأس والبؤس، ما الذي كان يجب فعله؟. لقد جاءت هذه المعضلة أساسا لكي تحطم بقايا انكساراتي، أضرت لي هياج أعمى في صدري يحدث تشنجات، كم وددت أن أصرخ وأن أضرب نفسي بيدي لأتخلص من فضاعة ذلك الإحساس الذي استقر في نفسي، ليس بيدي حيلة، ماذا كنت أنتظر بدل هذا؟. ومدى حبي الشديد لها، لم أفهم بعد سبب بكائي، كلما بكيت على حال يذكرني بما هو أشد منه مرارة. تعذبت بما فيه الكفاية لا أريد أن أبشر بالتنازل عن حزني، ولن يكون من الحكمة تركي له وتركه لي، فقد ولدنا معا من رحم واحدة، ووُجوبا منا لفظ النفس الأخير معا، فهجرته نية في اتباع حدس من حديث القلب، سيزيدني غصصا في

اشتياقي للاشيء، فلا أريد إجهاضه، فحزني جهادي. إذن قد قتلت الكورونا جميع آمالي لقد أمضيت حياتي كلها في الدفاع عن أشياء لن أحظى بها أبدا، أجلس الآن وحيدة، أمشط شعر الخيبة وأحكي لها عما يؤلمني، تلك الأيام أكدت لي أن أصعب شيء في هذه الدنيا أن تجلس مع نفسك فلا تجدها بت لا أقدر على البكاء.. إنّه الجحيم. لم تعد لدي معركة أخوضها، كل معاركي توقفت وهدأت تلك الشعلة التي احترقت طويلا، خسرت الرغبة المبطنة في الحياة حتى ولو بنصف قلب، كل ما بداخلي مات الآن لست بحزينة أشعر بعتمة ضخمة داخل صدري، من يفهم كيف يكون المرء منطفئا من الداخل؟ الكسر الكبير وخيبة الأمل التي أحملها كبيرة بدرجة أن لا شيء يساويها حتى فقدان الحياة لا يهزها كثيرا، ماذا بقى لي اليوم من كل الآمال التي كنت أرسمها؟. كم من المؤلم أن تنهار من الداخل وتبقى روحا لا تشعر ولا تحس؟، وتظل رغم الألم تجاهد لتبتسم للجميع!، من يفهم كيف هذا الشعور؟. أصبحت أتصنع النسيان كل ليلة لأني أدرك تماما أن

الفرحة التي كنت أنتظرها لا طعمّ لها أبدا، تبدو لي الأشياء وكأنها لن تتحسن أبدا، وأعتبر مصيري صاغرا إلى الأبد وتنازلت عن حقي بأن أحيا وأن أعيش. أنا بحاجة إلى من يسمع أنيني لأنه طغى عني و صار حزنا روتيني أعيشه في كل تفاصيل حياتي، شبه ميتة ومن يدرك ما معنى أن لا يكون للإنسان مكان يرتاح فيه، أنك عاجز ومعدوم، منطفئ من الداخل، لقد ضاق صدري ضاقت بي الحياة أقاوم وقد تعبت من المقاومة كثيرا، أحاول أن أواجه الو اقع الملموس لوحدي، وأحدد موقعي وسط هذه الحياة خاصة في ظرف الوجع الذي كنا نواجهه، حياتي متهالكة و أنا خائرة القوى. لا قدرة لي على الصمود، ضاقت بي الدنيا بما رحبت واشتد بي الألم في ساعات الهجر، أبحث في كل زاوية من الحياة بما تقر به عيني، لا أحد يعلم كم من الألم يحتضن هذا الكيان الهائل المشبع بالأسرار وكم ينطوي ظاهره على باطنه على خبايا ألقيت في جوفي منذ سنين، عقلي يموت وهذا الظلام وحده من يسمع أنين أوجاعي وآهاتي وكل ما يثقل عقلي وقلبي وروحي، أتغير كل يوم لكن النسخة

نفسها فقط إضافات جديدة لا تقل عن سابقتها غضبا ووجعا وخواء. ما زلت أعيش على الطريقة القديمة التي عشت بها شخصا معابة بجينة اليتم وعامرة بتجاعيد البؤس مما خلفته، كم تمنيت في أعماقي أن كل هذه الآلام تتبدد في شكل ألم ظاهر أو مرض عيادي ملحوظ ومرئي ليدرك كل البشر ما الذي أعيشه في ساعات العذاب السري هذه، حيث لا يحق للناس لومك لتألمك وتوجعك، حقا لم أتمكن من الصمود، حاولت كثيرا أن أصمد لكني لا أجيد سوى العجز، ومن يدرك هذا الإحساس؟، أنك عاجز عن كل شيء حتى عجزك في التحكم بمشاعرك. نفسيتي مشتتة إلى أجزاء صغيرة ولست قادرة على لصقها مرة أخرى، كما أن الاكتئاب هو كل ما كنت أنشده في قرارة نفسي تلك الفترة. نعم الاكتئاب والدموع، وقد دفنت فيها ألما آخر وهو تناثر بقايا الأمل التي كنت أحتفظ بها، كم حاولت أن أقاوم و أبدأ من جديد لكني بتذكر انكساري العميق أغرق في نوبة قاسية من البكاء، بدت لي فجأة أن سنواتي قد حالت وأصبحت كومة رماد، عبثت بها الرياح ولم تكن

رحيمة بعد كل ما جرى معي. حزنت كثيرا، أيعقل لفتاة مثلي أن يجتمع في قلبها كل هذا العجز والحرمان ؟، أصبحت لا أهتم بأي شيء حتى أحلامي وحياتي، ولا أريد أن أهتم بها، لم يعد في قلبي مكان آخر للأمل، والو اقع أني فقدت الرغبة في الحياة فقد كنت أعلم أنني كلما رأيت نورا أتذكر أن قلبي أصبح فارغا، لقد أمضيت حياتي كلها في الدفاع عن أشياء لم أحظ بها أبدا، أصبحت مجبورة على تقبل فكرة الخيبة والتعايش معها، باتت هي الملجأ الوحيد الذي يجعلني على قيد الحياة، فإذا أفلحت في ذلك لا يعود يفاجئني شيء، فالطريقة الوحيدة لمواجهة الخيبات المتتالية، هي أن يعشق المرء فكرة الخيبة نفسها، فليس هناك أصعب من أن تسقى الخيبة من شيء تهتم لأمره. لا معنى للحياة مع اليأس ولا معنى للحياة دون أمي. أصبحت إنسان ضائع يتبعثر في فراغه المشرد بدون أهل بدون سكن بدون وطن. تكرار تلك المحن و اجترار الألم سلبا مني كل شيء حتى ثقتي في الأشياء الصغيرة الممكنة.

انتهت حياتي هكذا فجأة وتبخرت سعادتي كأنما لم أتمناها أبدا.